

شرح مختصر سياسة الحروب

جهاد محمد حسن





Baytalmaqdiss44@gmail.com

بيت المقدس

تهذيب

شرح مختصر سياسة الحروب

جهاد مُحَّد حسن

بيت المقدس

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد،

فإن ما يحمله شرح الشيخ المجاهد قاسم الريمي – حفظه الله– من فوائد وحكم، لكتاب "مختصر سياسة الحروب للهرثمي" ، والذي عرضه بلسان عامي سهل يتداوله أهل جزيرة العرب، دفعني لأن أعمل عليه من جديد بلغة عربية فصيحة حتى يسهل تداوله ويعم خيره بشكل أوسع ويمكن بالتالي ترجمته إلى لغات أخرى، فأمة الإسلام تعددت أجناسها ولغاتها واتسعت رقعة وجودها وانتشارها وتفرعت معها أغصان مقاومتها وجهادها وتستحق منا توفير المؤلفات بلغة تجمعها هي لغة القرآن ، لغة أهل الجنة، اللغة العربية الشماء.

ولأنه عمل يعتمد على القراءة الثاقبة ويستند إلى التجارب الثمينة كان لزاما علي أن أحترم تسلسل الشيخ في شرحه وعرض أفكاره بما يوائم شرح كتاب "مختصر سياسة الحروب" للهرثمي الذي تناوله، وقد حرصت في هذا التهذيب على تحويل العامية إلى اللغة العربية الفصحى وتوضيح ما يصعب فهمه وتبسيط ما يمكن من عبارات ومفاهيم حتى يسهل إيصال الفكرة للقارئ الكريم.

وأرجو أن يلاقي هذا العمل القبول ويحقق النفع وأن ينضم إلى جهود العاملين في المكتبة الجهادية والإسلامية والمجاهدين في ميادين البذل والمسابقة والفداء.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم.

جهاد مُحَمَّد حسن

مقدمة الشرح

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله ومن والاه، أما بعد،

ربي اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقه قولي، اللهم آمين.

نتناول في هذه الصفحات شرح كتاب "مختصر سياسة الحروب للهرثمي"، وهو كتاب يتوفر بنسخة مطبوعة وحيدة.

وبحسب محققه فإنه لم يعثر إلا على هذه النسخة في معهد إحياء التراث والمخطوطات في الجامعة العربية، وهو كتاب يقدم مختصرا لشرح كتاب أكبر منه إسمه "الحيل في الحروب" للهرثمي.

الهرثمي

ويعرف الهرثمي[1] بأنه "أبو سعيد الهرثمي" صاحب المأمون، الخليفة العباسي. ولم يعرف أكثر من ذلك عن هوية الكاتب، وقد ناقشت مقدمة كتاب "مختصر سياسة الحروب" هوية الكاتب، ورجحت أنه من قيادات الجيش في الدولة العباسية ، وقيل أيضا أنه "هرثمة بن أعين". وربما كان من موالي القائد "هرثمة بن أعين".

أما عن كاتب المختصر فلا يعرف تحديدا من هو، وبين من يرجح أنه الهرثمي نفسه وبين من يستبعد ذلك، يذهب المحقق لترجيح الرأي الثاني وأن المختصر كتبه مؤلف غير الهرثمي.

[1] اسمه الهرثمي، وسنجد الشيخ قاسم الريمي حفظه الله، يستعمل بدل الهرثمي كنية "ابن الهرثمي" وهو ذاته الهرثمي في هذا التهذيب لشرح كتاب مختصر سياسة الحروب.

وأما الكتاب الأم "الحيل في الحروب للهرثمي" فلم يعثر له على نسخة، ويقال بأنه فقد أيام النكبة في بغداد، عندما وقع الغزو التتري، فأحرقه جنود التتار مع ما أحرقوه وأغرقوه من كتب. ولكن بقي كتاب "مختصر سياسة الحروب" النسخة الوحيدة التي تناولت شرح الكتاب الأم "الحيل في الحروب للهرثمي".

وهذا من فضل الله أن بقي لنا ميراث كتاب يستحق الدراسة لما يحتويه من فوائد ودرر.

وقد شمل مختصر سياسة الحروب، ثمانية وثلاثين وجها، أو ثمانية وثلاثين ورقة من الحجم الصغير لكنها عظيمة الفائدة. في حين اقتصر دور المحقق فيه على إضافة التشكيلات، كتعديل حرف التاء إلى ثاء وعلى هذه نقيس، وتعديل الكلمات، بحيث أن بعض التراكيب لا تستقيم معانيها، سواء لخطأ في النسخ أو خطأ مطبعي، وأيضا وضع الكلمة التي وجدت في المختصر في موضعها على ما هي عليه. ثم أخيرا قدم المحقق شروحات لبعض العبارات التي تحتاج لتوضيح.

يقول صاحب كتاب الطريقة العربية للحرب: "وقد كُتِبت أطروحة بعنوان (مختصر سياسة الحروب) بواسطة أبو سعيد الهرثمي، في ظلال الخلافة العباسية بالقرن الثامن، بغض النظر عن كونها دليلا للتكتيك، فقد كانت خلاصة لاستراتيجيات الحروب، وقد شملت أربعين موضوعا عن الانضباط والعسكرية أو الانضباط العسكري وخصائص القيادة ، والتعبئة العسكرية، والكمائن".

مضمون الكتاب

كما ضم كتاب مختصر سياسة الحروب أربعين بابا، كل باب يتحدث في فنه، فهذا يتناول الحديث عن مرحلة قبل المعركة وذاك عن المرحلة أثناء المعركة والآخر عما بعد المعركة، ثم باب عن صفات القائد، وباب عن الجند وباب آخر عن العقوبات، وأبواب تناولت مواضيع كثيرة، تدخل في حيز الاستراتيجيات والتكتيك، في أسلوب القتال وفي القواعد، مع العلم أن كلمة "استراتيجية" كلمة فضفاضة، تستعمل بعض الأحيان في الأسلوب وأحيانا أخرى في الرؤية العامة.

مصطلح "استراتيجية"

وهذا قول علماء الإدارة الغربيين، الذين قالوا أن كلمة استراتيجية كلمة فضفاضة، أي كبيرة تحتمل معاني كثيرة.

ولهذا حين نسأل شخصا عن استراتيجيته، قد يتلعثم، ولا يجد ردا، لكن إذا سألناه عن رؤيته في العمل، فلا يجد صعوبة في الإجابة، ذلك أنه مصطلح أكثر دقة ووضوحا من مصطلح "استراتيجة"، ولهذا يفضل توظيف كلمة "الرؤية" أكثر من "الاستراتيجية".

تشابه في التسمية

ويجدر التنبيه إلى أن هناك كتاب آخر يحمل اسم "الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب" لابن منجلي، وهو ليس كتاب الهرثمي الذي نقصده.

فكتاب "الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب"، صدر في القرن الثامن، ولكاتبه كتابين آخرين أيضا، أحدهما "الأدلة الرسمية في التعابي الحربية" وكتاب "التدبيرات السلطانية في سياسة الصنائع الحربية" .

وفي الواقع فإن مكتبة التراث التي تولت عملية التحقيق لهذه الكتب، احتوت كما هائلا من العلوم العسكرية ومن الفروسية وعلوم تغنينا بقوة عما هو موجود اليوم في المكتبات الأخرى، وهي مؤلفات في صميم الحاجة التي يحتاجها المقاتل أو يحتاجها المسؤول عن العمل.

ثم إذا جئنا لاسم الكتاب، "الحيل في الحروب"، فليس المقصود من كلمة "الحيل"، الخدعة، وإن كانت تأتي بهذا المعنى أحيانا، ولكنها في هذا المقام أتت بمعنى "الطريقة" أو "الأسلوب"، ولهذا حين أراد الكاتب اختصار كتاب "الحيل في الحروب"، لم يقل "مختصر الحيل في الحروب"، بل قال "مختصر سياسة الحروب"، ما يعني أن كلمة الحيل هنا ليست بمعنى "المخادعة" وإنما بمعنى "الأسلوب"، وفي المجمل فإن الكتاب لا يتحدث عن الخدع الحربية، وإنما يتحدث عن الطريقة التي يتعامل بها الأمير مع المأمور وطريقة التعامل مع الأوامر العسكرية. أي باختصار عن السياسة.

ونذكر قول الشاعر:

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ف "حيلة" هنا ليس المقصود منها "الخدعة"، وإنما "الحاجة" وهذا لاتساع المعاني في اللغة العربية لكلمة واحدة بسبب ثراء مصطلحاتها، ولهذا وجب النظر في طريقة توظيف الكلمة في العبارة حتى نحدد المعنى المراد منها..

باب مقدمة المختصر

في باب مقدمة المختصر، قال الكاتب: "إعلم أن أمور الحروب وحوادثها أكثر وألطف من أن تحيط بها الكتب، أو يبلغها الوهم، وإنما قصدنا في كتابنا قصد الإذكار والتنبيه، وقد رسمنا من معاني ما صار إلينا من كتب الأوائل وأحاديثهم عنها، إلى ما حضرنا من ذلك بعض ما رجونا أن يكون فيه كفاية لما قصدنا له". ويقصد الكاتب بذلك أن أمور الحرب وشؤونها ومسائلها وما يجد فيها وحتى نوازلها ومصائبها وكل طارق يطرق هذا الباب، أدق من أن تحيط به الكتب، فأمرها أعظم، ولا يمكن لعقل أن يتصورها تصورا ذهنيا ذلك أن العقل لن يصل إليها بسبب الفرق بين المجال العلمي والعملي.

فالكتب لا يمكنها أن تحيط بكل أمور الحروب وحوادثها، ولكن الهدف من كتاب الهرثمي هو الإذكار والتنبيه، وهو عبارة عن خلاصة ما تتبعه الكاتب قديما مما كتبه الأوائل، وأيضا ما وصله من سماع من خلال التجربة راجيا أن يكون في هذا كفاية لما قصده.

وقال: "على أن كثيرا مما وجدنا في كتبهم من ذكر التعبئات والقاء وما أشبه ذلك، إنما هو في الزحفين الأعظمين ، والذي يقع فيه من الاختلاف في الحروب وحوادثها أكثر من أن يحصى بالتدبير ، والعمل يختلف فيها بحسب ذلك".

ويقصد بـ "التعبئة"، التهيئة للقتال ورص الصفوف وتجهيزها، أما "اللقاء" فهو القتال، ولقاء الصفين، أي الجمعين كما قال تعالى: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان).

فما يدور حوله الحديث إنما هو في الزحفين الأعظمين، زحف الجيش والجيش العدو له، جيش المسلمين وجيش الكفار، وقال "والذي يقع فيه من الاختلاف في الحروب"، أي أن ما وصلنا من كتب الأوائل وسمعناه ، غالبا ما يتحدث عن التقاء الجيشين.

وأغلب الكتب التي تتناول موضوع العلوم العسكرية، تركز فحوى اهتمامها على إلتقاء الجيشين، بالرغم من أن التقاء الجيشين وإدارة القتال هي من المسائل المتجددة.

مثال على ذلك أن طريقة تقسيم نصف الجيش لميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة، هي طريقة قديمة وقد تجددت، كذلك الانحياز بطريقة معينة، فكل ما يخص تشكيلة الجيش في المعركة أو خطة القتال، يتغير بتغير الزمان والمكان، ويتغير بتشكيلتك، ويتغير بتشكيلة عدوك، لهذا نوه الكاتب على أن أكثر ما وصلهم كان في هذه المسألة أي في الزحفين الأعظمين، وعقب قائلا إن "حوادثها أكثر من أن يحصى بالتدبير".

ويقصد بحوادثها، أن نوازل ومسائل كثيرة تقع خلال هذه الحال، فيتعاملون معها بناء على ذلك، إذن هي متجددات، وأضاف: "والعمل يختلف فيها بحسب ذلك"، فلكل حادثة أو نازلة طريقة تعامل خاصة بها.

وخلاصة قوله أن ما تحتويه الكتب السابقة هو وصف لكيفية ترتيب الجيش، والمعركة، وهي من المتغيرات، لكن ما يرمو له الكاتب هو أن يقدم شيئا مختلفا، إنه "سياسة عامة للحروب"، أي كيف تتعامل في هذه الحرب مع سيارتك ، مع دوابك، كيف تسوس أصحابك، وكيف تسوس حتى عدوك، كيف تدبر شؤونك، وكيف تدير أمورك، فهذه هي السياسة التي يقصدها الكاتب بتسمية كتابه مختصر سياسة الحروب.

ولنوصل المعنى بشكل أقرب، نضرب مثالا على هذه السياسة في عصرنا الحالي، فقد يحرص تنظيم جهادي على سياسة في التعامل مع القبائل، فتعلن قيادة التنظيم أن سياسته، تجنب الصراع مع القبائل قدر المستطاع، والدوام على هذا الأمر يعد سياسة، لكن قد يحصل في مرات أن يكون لها استثناءات، تقع مرة واحدة، فهذا الاستثناء لا يعد سياسة، إذ أن السياسة هي طريقة في التعامل تستمر مع كل المواقف والأحداث في أغلب الوقت.

وبهذا فإن ما بين أيدينا هو مختصر سياسة عامة للحروب، يعتبر ذا أهمية كبيرة لكل مقاتل وتنظيم.

ثم قال: "وقد صيرنا هذا الكتاب أربعين بابا مجردة، وهذه تسمية الأبواب، لينظر الناظر فيها فيقصد بغيته منها إن شاء الله"، وحين يقول بابا مجردة فيبدو أن المقصود منها الأبواب المنفصلة، فكل باب يعرضه الكتاب منفردا لا يحتوي على فصول بداخله، وميزة هذا التجريد هو أن ينظر الناظر فيها فيقصد بغيته منها إن شاء الله.

فكثيرا ما نجد الكتب مقسمة لفصول وأبواب مرتبطة ببعضها البعض أو متسلسلة لا يمكن فهم أحدها دون الآخر، خاصة تلك الكتب التي تتناول موضوع رسالة أو مسألة بعينها، لكن الوضع هنا مختلف، فالحديث عن معركة يعني أن الباحث يبحث كيف يوزع الجند

فيذهب مباشرة إلى باب توزيع الجند ويبحث في ثنايا ما كتب في هذا الباب، فإن كان يبحث عن مسألة العقوبة، فليتوجه مباشرة إلى باب العقوبة وهكذا دواليك، وهذا تحديدا معنى أن يبحث الباحث عن بغيته ويتعامل معها مباشرة، مثل في التعامل مع القواميس.

ثم غالبا ما يبحث في هذا النوع من الكتب المسئول العسكري وهذا عليه أن يقرأ الكتاب كاملا ويحصل فوائده جملة وتفصيلا في حين يكفي الجند أن يفقهوا مسائله عموما.

الباب الأول: "في أن الأمر تقوى الله والعمل بطاعته"

في هذا الباب يقول الكاتب: "فينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره، والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألته التأييد والنصر، والسلامة والظفر، وأن يعلم أن ذلك إنما هو من الله جل ثناؤه لمن شاء من خلقه كيف شاء ، لا بالأرب منه والحيلة، والاقتدار والكثرة، وأن يبرأ إليه جل وعزّ من الحول والقوة، في كل أمر ونهي ووقت وحال، وألا يدع الاستخارة لله في كل ما يعمل به، وأن يترك البغي والحقد، وينوي العفو، ويترك الانتقام عند الظفر، إلا بما كان لله (فيه) رضى، وأن يستعمل العدل وحسن السيرة، والتفقد للصغير والكبير مما فيه مصلحة رعيته، وأن يعتمد في كل ما يعمل به في حربه طلب ما عند ربه عز وجل، ليجتمع له به خيرا الدنيا والآخرة، فعسى قائل الآن أن يقول: فقد نرى البغاة الظلمة بأهل العدل والإنصاف يظفرون، ونرى الكفرة بالله على أوليائه يُنصرون، فليعلم أن ذلك من تقدير العزيز الحكيم في خلقه، هو أعلم به من مكنون غيبه.

على أنه قد يكون ذلك الكافر الظالم إملاء واستدراجا، وللمظلوم الموالي نظرا وابتلاء، وإن العاقبة للمتقين.

فليتق ربه وليصدق يقينه، ويتجنب الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة، مع ما ينال صاحبه من عاجل عقوبات الدنيا، ولا يعمل بشيء من كتابنا هذا ولا بغيره إلا بما كان لله فيه رضى، وبالله العصمة ومنه النصر".

في هذا الباب تحدث الكاتب عن موضوع تقوى الله عز وجل، ويعتبر هذا الباب أهم ما ورد في هذا الكتاب، وهو المنطلق الذي انطلق منه، ويدل عليه قوله: "نظام الأمر تقوى الله والعمل بطاعته" ، فنظام يعني جماع الأمر.

كحال المسبحة، نراها منتظمة، مجتمعة حباتها في نظام، وكذلك كل أمر لديه استقامة وطريقة سيران، ولكي يستقيم لك الأمر كاملا، لابد من تقوى الله عز وجل والعمل بطاعته سبحانه وتعالى.

فالأمر الأول الذي بدأ به الكاتب هو الأصل، وهو الخشية من الله عز وجل وطاعته.

المنطلق

وهنا أمامنا مسألة مهمة وهي منطلق العمل، فقد انطلق من أمرين معا، أمر تقوى الله عز وجل وأمر العمل بطاعته، وهو ذات منطلق العسكرية اليوم، فهي تنطلق من هذا المنطلق، حيث يتم تدريب الجندي على السمع والطاعة للضابط الذي فوقه، وهذا الضابط بدوره يسمع ويطيع لمن فوقه، ويتم هذا النظام بناء على القوة والخشية والخوف، يتم بناؤه على الرعب.

لكن الفرق في العسكرية المتداولة في عصرنا اليوم عما يرمو له الكاتب، أن السمع والطاعة هنا بنيت على السمع والطاعة لبشر وليس لله عز وجل كما يطلب الهرثمي رحمه الله.

فأول مسألة يحرص عليها في الجيوش، هي مسألة الخشية من الدولة، الخشية من الضابط، الهيبة منه، وأول مسألة يحرص عليها أيضا في هذا الباب، السمع والطاعة بدون أي نقاش، إذا جاء الأمر فعلى الجندي التنفيذ بلا مناقشة وإن سمح له بشيء منها، فلا يعني هذا أن يبحث عن العدل ومقصد الحق، إنما هي مناقشة شكلية في أغلب الأحيان.

هذا طبعا عند الكفار ومن سار على نهجهم، لكن عندنا نحن المسلمين، منطلقنا أنه لا طاعة إلا بالمعروف، بمعنى في شيء أمر به الله عز وجل، لا يكون مخالفا لأمر الله عز وجل، هذا منهج المسلمين في العمل، الانطلاقة لديهم أن الخشية لله عز وجل، وليست للمخلوق، والسمع والطاعة لله عز وجل وليست للمخلوق، بعكس الجندية لدى العدو، التي تربي الجندي وتذله لبشر.

ولهذا عند دخول الجندي للعسكرية أو الجندية يخضع في الخمس وأربعين يوما الأولى لعملية غسل دماغ، يصبح معها الجندي ذليلا وخائفا من الضابط الذي فوقه، ينفذ أوامره خشية منه، وتتجلى ملامح الطاعة العمياء لبشر في هذا المشهد.

وهذا ما يفسر الفرق في مسألة العبودية، فالجندية عند المسلمين، أو العسكرية، تبني الرجل ليكون عبدا لله، لكن العسكرية عند غير المسلمين، تبنيه على أن يكون عبدا للبشر، من هنا نعيش مع قول ربعي بن عامر – رضي الله عنه – عندما سئل: من أنتم؟ فأجاب: نحن قوم ابتعثنا الله، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

العبادة

ثم ما هي العبادة؟ قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) قال ابن عباس – رضي الله عنهما–: إلا ليطيعون.

وقال عدي لرسول الله ﷺ ، إننا لم نعبدهم فقال ﷺ : "ألم يكونوا يأمروكم فيحلون لكم الحرام فتحلوه ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه!"، قال: بلى يا رسول الله، قال: " فتلك عبادتكم إياهم".

إذن مسألة الأمر عند المسلمين مضبوطة، فيجب ألا يكون مخالفا لأمر الله عز وجل، فهو أمر مقيد بطاعة الله عزوجل، والخشية والتقوى هي من الله عزوجل، وليست ممن هو أمامك، على عكس الجندية لدى الآخرين.

ومن هنا كان منطلق الكاتب، المنطلق الأول، أن العمل قائم على خشية الله عز وجل وليس على خشية المخلوق، وقائم على طاعة الله عز وجل وليس على طاعة المخلوق، فسواء حضر الأمير أو لم يحضر ، راقب عملي أو لم يراقبه، فإن عملي كله مضبوط متقن لأن الخشية من الله وليست من الأمير الذي أمامي.

ثم عندما يصدر الأمر من الأمير، سيجد الطاعة مبشرة ومبهرة لأنها لم تأتي في معصية فهي من طاعة الله عز وجل، لقول النبي ﷺ:"من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني".

وهذا ما يجعل هذا المنطلق منطلقا عظيما جدا، فمدار العمل هو تقوى الله عز وجل، والعمل بطاعته.

التقوى

وقد يتساءل سائل ما محل التقوى؟

يقول رسول الله ﷺ :"التقوى ها هنا" ، "التقوى ها هنا"، "التقوى ها هنا" وهو يشير على صدره ﷺ ، يعني التقوى في القلب.

إذن مناط الأمر كله في هذا القلب، فلو جاءك الرجل ضخما قوي الجثة ولكن قلبه قلب دجاجة، لن ينفعك في شيء، بينما على العكس، لو جاءك الرجل نحيفا دقيق الساقين، لكن قلبه كالجبل، فهذا بالتأكيد سينفعك.

فالقلب قبل القالب، والروح قبل الجسد، وهذه التقوى محلها القلب.

القلب

ثم هذا القلب محل نظر الله عز وجل، إذا صلح صلح العمل كله، ولهذا حث الكاتب على أن نبدأ من القلب، نصلحه ونهيئه ثم ننطلق، فلم يبدأ بالحديث عن السيف وعن الغزو في حين أن القلب فاسد.. لأن هذا مضيعة للجهد والوقت.

لكن بدلا من ذلك جعل حديثه – بداية– عن القلب، عن كيف نبني القلب السليم، ذلك أن من لم ينتبه لقلبه فسيخذله في أول مسلك، وفي أول الطريق..

يقول النبي ﷺ : " ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب".

وقد يحتج أحدهم بأن الله قد ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر، ولكن ليس هذا هو الأصل..!

فليس المطلوب أن يكون فاجرا ويبقى فاجرا، أو أنه لابد أن نستعمل في العمل الرجل الفاجر، لأن الله ينصر الدين بالرجل الفاجر، أو أن نقدم تزكية لمثل هذا الرجل في وقت لا نحتاجه إلا اضطرارا، هذا لا يستقيم لأن هذا الفاجر ينصرنا بسبب ظرفه، بسبب حالة، بسبب كلمة قالها أرادها الله منه، لكن ليس معنى هذا أن أقتدي به أو أضمه إلي أو يمثلني.

ولا ينفع المرء إلا أن يأتي الله بقلب سليم، (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)، سليم من الشرك، سليم من الغل، سليم من الحقد، سليم من الرياء، سليم من كل أنواع أمراض القلوب.

وليس المطلوب الوصول إلى الهدف بل المطلوب هو إصلاح هذا القلب. الذي هو محل نظر الله عز وجل. فلا فائدة من العلوم العسكرية ولا فائدة من الجهاد ولا أي عمل آخر إذا كان القلب فاسدا.

وهذا ما يجعل مسألة الاهتمام بالقلب مسألة عظيمة .

وهذا حال الدينمو[2] الذي هو قلب هذه الآلة، فإذا فسد فلا يصلح معه أي زيادة أو نقصان، سواء رفعنا عدد الفولتات[3] أو أنقصناها، مات هذا القلب ولن يجدي أي حل معه نفعا.

[2]مولد الكهرباء في الدراجة

[3] وحدة قياس كهربائية

فبصلاح المحرك تصلح معه الآلة، وكذلك صلاح القلب تصلح معه العين واللسان والأذن واليد والأوامر والعقوبة، فالقلب سليم صحيح، عمل صاحبه لله وليس للهوى، إن صبر صبر لله وإن بذل بذل لله وإن أتقن أتقن لله.

ويجد الإشارة إلى أن حديث الكاتب موجه للجميع ليس فقط لقائد العمل العسكري، بل لكل فرد، أميرا كان أو مأمورا، رجلا كان أو امرأة، فالجميع مطالب بإصلاح قلبه.

يقول الإمام الغزالي – رحمه الله-: "عجبا للذي يهتم بوجهه الذي هو محل نظر الخلق ولا يهتم بقلبه الذي هو محل نظر الخالق سبحانه"، فهل تتزين لتقابل البشر ولا تستحي أنك تقابل الله رب العالمين رب كافة البشر دون أن تتزين له.

فحين يسعى المرء للعمل في سبيل الله ولأجل دين الله، مخلصا لله عز وجل، قد يقطع طريقه أمور تفسد عليه قلبه، قد نبه عليها الكاتب فشدد – كعلاج لها – على تقوى الله عز وجل، لأنها رأس سنام أمرك، فلا تعطل عملك ولا تؤخره ، تلك هي تقوى الله.

وبهذه التقوى لن تتعدى على الدماء ولن تكفر الناس ولن تستحل محرما، ستبقى حقوق الناس نصب عينيك.

والعمل العسكري، يحتاج لقلب رجل، لا يحتاج لاضطراب ولجلجة، نعم تحتاج أن تعلم متى تقدم ومتى تؤخر ، لكن تقدم وأنت ثابت وتؤخر وأنت ثابت.

قال عمر ﷺ : إن هذا الأمر لا يصلح له إلا رجل مكيث، (أو المكيث). الذي يعرف الفرصة والكف، يعرف متى يقدم ومتى يحجم.

وكل هذه أمور تدبير يجب أن تخضع للواقع بسبب قلب الرجل، فإذا كان الرجل قلبه معلقا بالله عز وجل، هل سيخشى من أحد؟

فحتى لو حفظ الجندي كل العلوم العسكرية، ولكن قلبه يرتجف خوفا، هل سينفع أحدا؟

حتى لو كان عبقريا أو آية من آيات الله في العلوم العسكرية ولكن قلبه ليس معلقا بالله عز وجل، ولكن معلق بكل حدث، وبكل خبر، هذا خبر يقدمه وذاك خبر يرده فهل هذا النوع من الرجال ينفع؟ بالتأكيد لا.

ويروي الشيخ قاسم الريمي حفظه الله، قصة في هذا الباب عايشها بنفسه يقول فيها: "كنا في يوم من الأيام في منطقة من المناطق، ثم وقعت حملة لكن الإخوة تصدوا لها وانتصروا فيها، فاتصل وزير الدفاع وأعلن عن عزمه قصف المنطقة، فارتجف المسؤول العسكري معنا ولم يتمكن من الوقوف ودقات قلبه تنبض بقوة وسرعة، لم يقو الإخوة على حمله من شدة خوفه وكنت برفقته مع الشيخ خالد، لم يقو على الوقوف على قدميه رغم مساعدة الإخوة له، ثم ماذا بعد ذلك؟! لقد سلم الرجل نفسه بعد يومين للعدو!".

فنحن بحاجة لقلب قبل الحاجة لذارعين أو لقدمين!!

ولهذا فإن ضبط مفهوم القلب هو الأصل هو المنطلق، إذا نجحنا في ضبطه، كل ما يليه هين، فقد يكون الأخ غير ملم بهذه العلوم، لكن قلبه يثبتك، لا يضطرب عند النوازل والأحداث، قال تعالى: (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله) ، (وصدق الله ورسوله) (وما زاده إلا إيمانا)... الآيات.

على عكس من يترقب أي حركة من العدو ثم يبدأ بالتذلل والهروب، فهذا لم تنفعه العلوم العسكرية، ولن تنفعه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله–: "لن يخاف رجل من رجل إلا لمرض في قلبه".

فجعل سبب الخوف القلب، ومن الطبيعي أن يكون هناك خوف فطري، أي أن الإنسان يخاف من إنسان، لكن المقصود هنا الخوف الذي يتعدى، الذي يصل بك إلى التنازل والانتكاسة، قد تبيع دينك بعرض من الدنيا قليل، قد تترك عملك أو الثغر الذي أنت عليه بسببه.

نعم فالإيمان يزيد وينقص، ويمكن في بعض الأحيان أن ينقص عند الإنسان لدرجة يترك معها ثغره، وهذه مصيبة!

ثم لا ننسى أن الموبقات سبع، (اتقوا السبع الموبقات)، ومن ضمنها الفرار من الزحف.

ثم ما الذي يثبت هذا القلب، ويثبتك؟

قال تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)، فنرجع من جديد لهذا القلب، والذي يثبت بالتعلق بالله عز وجل وحسن ذكره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله– كلاما جميلا جدا في هذا المفهوم، حيث قال: "الحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس".

فقد تلتقي بغني يملك المليارات، لكنه فقير يرى كل شي فقرا، لا تكفيه الدنيا، فهذا نوع لا ينفعك، ولكنك قد تلتقي بمن لا يملك إلا قوت يومه، إذا توفر له، ولكنه غني، غني النفس والخلق والتعامل.

بعضهم تراه حرا طليقا لكنه عبد لهواه لكل نازلة، لكل حادثة، وآخر تراه مسجونا في زنزانة لكنه حر، طليق، روحه محلقة!

وكذلك الشجاعة، الشجاعة شجاعة القلب، والإقدام إقدام القلب، والصدق صدق القلب وهكذا.

بهذا فإن المنطلق الذي انطلق منه المؤلف منطلق عظيم جدا، لابد من الاهتمام بالقلوب، فهي رأس المال، رأس الحربة، فقال: "اجعل رأس حربتك تقوى الله عزوجل".

كيف يكون صلاح هذا القلب؟

يكون بالإخلاص لمولاه، بالإخلاص لله عزوجل، فعندما يكون عمل الإنسان خالصا لله عز وجل، لا يعاني نفسيا، لا يبحث عن شكر بشر أو ثناء، ولا تقدير إنسان ولا احترام!

يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله– : "أرسل لي أحدهم رسالة يقول فيها: لماذا لا يقدرونني، لماذا لا يعطوني حق قدري، ثم يقول: لماذا لم يعطوني عملا يليق بمقامي، وما لبث أن ترك هذا الشخص العمل، بحجة أن فلانا لم يحترمه..!".

فهل كان عمله لله أو لفلان!

وهذا النوع من الناس يتعب جدا في عمله، وإن كنت تبحث عن الاحترام وتبحث عن الحصانة في عملك وإلا فتهدد بأنه لا يمكنك العمل، فلا تتعب نفسك!

يقول ابن القيم – رحمه الله –: "العارف بالله لا يعاتب ولا يطالب".

فالرجل الذي يعاتب ويطالب، يعيش في عذاب مستمر، تجده لا يعمل إلا إذا لبوا طلباته، لا يقدم إلا إذا اعتذروا له، وفي الواقع، هذا النوع من الناس حرم لذة العمل في سبيل الله بظلمه لنفسه.

ثم لن يستطيع أحد أن يعمل معه، ففساد هذا النوع هو فساد في القلب، لا يمكنه أن يعمل مع أي جندي، فبمجرد أن يغضبه أحد أو يحزنه أو يزعجه، يوقف كل شيء، لا يعمل إلا بقيد نفسياته!

لهذا علينا أولا أن نتعامل مع القلب، هذا القلب الذي يجب أن يكون واسعا، أن يكون عمله لله عز وجل، يتخذ آية (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) منهجا في الحياة، سواء شكرته أو أسأت إليه فلا يهمه لأن عمله لله عز وجل والمسألة عنده واحدة.

وصاحب القلب المريض لا يمكنه أن يحقق شيئا، لهذا وجب إصلاح القلوب ثم الانطلاق.

ولاشك أن أثر الإخلاص في العمل الإداري أو في العمل العسكري أو في أي مجال عمل، أثره عظيم جدا، يدفع بالسرور أن تتعامل مع صاحبه، ويكفي أن الله عز وجل يلقي محبة فيه، حتى وإن كانت درايته بالعلوم العسكرية ضعيفة، ذلك أن فيه محبة وفيه توفيق من الله عز وجل لعمله.

الإخلاص

وقد يقول قائل إن كان الأمر كذلك، فلماذا لا أخلص لله وأرتاح؟

نقول إن الإخلاص أمر عظيم، يسعى إليه الإنسان ويدعو الله عز وجل أن يوفقه في تحقيقه، فهو ليس مجرد عبارة أو مسألة رياضية تتدرب عليها وتحفظها.

إنه أمر يحتاج إلى دعاء الله عز وجل ، والاستعانة بـ "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"، .. فاللهم ارزقنا الإخلاص.

قال شيخ الإسلام بن تيمية – رحمه الله – مقولة عظيمة جدا: "كم في القلوب من علل تأبى أن يكون العمل خالصا لله عز وجل".

فقد تتمنى أن يظهر العمل أمام الناس فيبهرهم وأن تظهر بأنك من قام به، أو أنك صاحب الفكرة الفلانية وأنك صاحب الطرح الفلاني. ولكن هذا أمر سيتعبك كثيرا وستخسر معه.

قال أحد العارفين: "إن أحدهم يصلي في منتصف الليل وهو أكبر مرائي، فيقول لو أحد رآني الآن!! ".

وهذه النفس ضعيفة تحتاج لدعاء وتضرع بيد الله عز وجل، وأن يكون العمل خالصا لله عزوجل، وإصلاح القلب ضرورة قبل كل شيء.

بين المنطلقين

إذن ابتدأ الهرثمي كتابه بباب هو رأس حربة للمجاهد، إنه مسألة التقوى والعمل بطاعة الله عز وجل. ثم تحدث عن محل هذه التقوى ومحلها في القلب.

وهنا نتطرق لمسألة أخرى حول صلاح الأمة، فصلاح الأمة يستقيم بصلاح أفرادها، بصلاح التنظيمات والجماعات، بصلاح الأحياء، بصلاح الأفراد، وهكذا ، فالأمة في الأخير مكونة من وحدات وهذه الوحدات هي أفراد، وصلاح الفرد يكون بصلاح قلبه،

إذن المحصلة في الأخير لو أصلح كل فرد نفسه لصلحت الأمة، قال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

هذا المنطلق الذي بدأ فيه الهرثمي هو المنطلق الذي نحن في حاجته، وليس في حاجته فقط ذلك الأخ المسئول العسكري أو الإداري أو عامة الجند، بل الكل يجب عليهم إصلاح هذه المضغة.

ثم لو أننا أخذنا أي كتاب من كتب العلوم العسكرية في عصرنا الحديث، من الكتب المشهورة، وأكبر كتاب مشهور يتداوله المجاهدون بشكل ملحوظ، هو كتاب "فن الحرب"، لـ "سون تزو"، وهو منظر من منظري العلوم العسكرية، لو أخذناه فلن نجد فيه مثل هذه المرجعية.

ذلك أن كتاب الهرثمي يحدثنا فيه رجل مسلم، بل قائد مسلم لديه من العلم الشرعي ما جعله يتحدث في أول الأمر عن القلب، هذا القلب الذي نحن مطالبون شرعا أن نبدأ به، قال تعالى: (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم).

لكننا بالمقابل لو أخذنا أي كتاب من الكتب العسكرية الأخرى، لن نجد كاتبا يتحدث في هذا الأمر، لن يتناول موضوع تقوى الله عز وجل أو العمل بطاعة الله عز وجل، أو أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لأن هذه الكتب تطالبك بالطاعة أولا للمسؤول فوقك. فمنطلقها مختلف.

فهل هذه الكتب تصلح لنا؟ هل هذا العلم يصلح لنا ؟ بالتأكيد لا تصلح للمسلمين.

إذن هي كتب إن حدثتك عن الخشية أو الرهبة جعلتها من الأمير الذي عليك، من القائد الذي عليك، وهكذا إلى أن تصل إلى الطاغوت الأكبر. لكن في كتب المسلمين تجعلها من الله عز وجل وحده لا شريك له أولا وأخيرا.

وهنا تتردد مسألة يحاجج بها الكثير من الإخوة الذين ينكبون على هذه الكتب التي لا تنطلق من نفس منطلق المسلمين فيبررون اهتمامهم هذا بأن رسول الله ﷺ قال: "إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر"، وأن هذه الكتب هي كتب فاجرة ويمكن الاستفادة منها أيضا.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام، هل نحن مطالبون أن نبحث نحن بأنفسنا عن هذا الرجل الفاجر ونأخذ منه؟ هل لابد أن نأخذ العلم من رجل فاجر أو من كتب فجور؟ هل هذا ما نحن مطالبون به؟

فهذه المسائل التي نبحث فيها هي مسائل دين، نحن نبحث في مسائل قتال، والقتل له أحكام، نبحث كيف نتعامل مع عدونا، وهذا باب معاملات، وباب عبادات أيضا، نبحث كيف نتعامل مع إخواننا، كيف نعاقب، كيف نحاسب، كل هذه مسائل شرعية، فمن أين نستقيها؟

بكل تأكيد ليس من عدونا!

حتى في مسائل القتال التي تسمى في الميدان "التكتيك" ويسمونها أيضا "الأسلوب" وغيره، حتى هذه، ، أي عقل بقى لي! أي تفكير بقي لي! عندما أحصل على خطتي وترتيباتي من عدوي!

ولابد من التفريق بين الاستفادة منها وبين أخذها كهدي، ففرق كبير بين هذا وذاك.

وتبقى المسألة أولا هي الانطلاق من المرجعية التي نأخذ منها ونحصّل منها العلم.

يجب أن نأخذه من مرجعيتنا نحن كمسلمين لا نأخذه من غيرها.

أنا شرعيا مطالب أن أحافظ على تفكيري ، على عقلي وعلى عقول الناس، فليس كل دورة انضم إليها، وليس كل كتاب أقرأه، فهذه مسائل دين، والعلم دين، "فانظروا عمن تأخذوا دينكم".

يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله- : "كنا في فترة من الفترات نجتمع في دورة لندرس موضوعا معينا، فنأخذ من الكتب الموجودة في الساحة في باب العلوم العسكرية، فنطرحها على الجند، فلاحظت في بعض الأحيان أن بعض الإخوة، إذا حدثته عن غزوات النبي ﷺ، أو كانت الدورة تتناول الحديث عن غزوات النبي ﷺ، اشمأز، ووجد في نفسه، وتظهر الكراهية على ملامح وجهه، وإذا ما حدثته عن "فن الحرب"، رأيته يستبشر ووجهه يستنير، فإذا سألته لماذا؟ يجيبك: يا أخي معارك النبي ﷺ على العين والرأس، وأنا أهتدي بهدي الرسول ﷺ لكن واقعه ﷺ كان غير واقعنا اليوم!

فانظر إلى الضلال!

في حين أن صاحب "فن الحرب"، متى كتب كتابه ؟ كم سنة قبل الميلاد؟ كتبه قبل آلاف السنين!

إذن هنا نشاهد أعراض المرض، فهو لم يعرف قيمة هذا الدين ولم يعرف قيمة الكتاب الذي بين يديه، لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم فيه عزكم فيه مجدكم فيه دولتكم ..".

نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله. وهذا النوع من الرجال فيه انهزام ، والانهزام في داخله، يجعل الكتاب الذي مر عليه آلاف السنين تاجا على رأسه، وحين تحدثه عن غزوات النبي ﷺ ينظر إليها بشيء من التهوين!

ذلك أن فيه جهل وفيه أيضا مرض، فهو يجهل قيمة هذا الأمر، ولا يدرك أن هذه المرجعية واجبة وأمرها عظيم، وفيه مرض لأنه ينظر إلى القوم الآخرين من موقع متدني، يراهم في علو ونحن أسفل منهم، وهذا ظلم لنفسه.

مثال من التاريخ

وهذه المسألة مما يذكرها أهل التأريخ وأيضا في الحروب الحديثة، ولها أثر عظيم في الميدان، مثال على ذلك، في الحرب العالمية الثانية، كان لدى الجيش الفرنسي خطا يوصف بأنه خط لا يقهر، بناه الفرنسيون لحماية أنفسهم من أي اعتداء، ويسمى خط "ماجينو"، ويتكون هذا الخط من دفاعات بعدها دفاعات بعدها دفاعات لدرجة يقال عنه: مستحيل أن يتجاوزه أحد.

ثم جاء الألمان، فاقتحموه خلال 14 يوم فقط..!

فأين كانت المشكلة؟!

لو أن أي جيش آخر أراد اقتحامه كالجيش الأميكي مثلا، لم يتمكن من ذلك، لكن الجيش الألماني هو الوحيد الذي استطاع أن يقتحمه.

ذلك أن الجيش الفرنسي كان ينظر إلى الجيش الألماني على أنه مصدر قدوة، ومصدر إلهام، والضابط الفرنسي يرى أن الضابط الألماني هو قدوته، يأخذ العلوم العسكرية منه، وحتى ثقافته، بل إن المرأة الفرنسية نفسها تتشبه بالمرأة الألمانية، وكل الشعب الفرنسي كان متأثرا تأثرا شديدا بالشعب الألماني، فانظر أين وصلت درجة هذا التأثر!

أنت الآن حين تأخذ العلوم من (قال الله) و (قال الرسول ﷺ)، تأخذها من تاريخك، من غزوات الصحابة ، ومن التابعين، فإن أنت أخذتها بشيء من الانكسار بينما حين تأخذ العلوم من كتب القوم، تأخذها بشيء من الإعجاب.. فهذا يأثر عليك بالتأكيد..

ثم كيف ستستطيع أن تجابه إنسانا وأنت ترى أن عقله أفضل من عقلك! وأن تفكيره أفضل من تفكيرك!

ثم تغالط نفسك وتقول: ولكن هذه علوم تجربة! بل هذا ضعف وانهزام، ونسيت أن (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين).

فيجب أن تكون مسألة الاستعلاء بهذا الدين حاضرة، موجودة، ومسألة النظر إلى الكتب الأخرى بأنها أقل وتحت، أيضا حاضرة وموجودة، وفعلا هي أقل وتحت مما عندنا، يقول شيخ الإسلام – رحمه الله- كلاما جميلا جدا في اقتضاء الصراط المستقيم – حيث أثار مسألة التشبه بهم في مسائل الأمور الدينية وحتى الدنيوية، وكان كلامه عجيبا جدا في المسائل التي يتقنونها –لو فرضنا جدلا أنهم يتقنون الفنون العسكرية أفضل منا طبعا- وهذا

منافي للحقيقة ، لا نقولها تعصبا أو عنادا، لأن مجرد مقارنة منصفة لما لدى المسلمين وما لديهم نجد أن القوم لا يملكون شيئا.

ولكن لماذا هم في علو؟

الجواب: لأنهم عملوا، ولو أن المسلمين اجتهدوا وصنعوا، لكان نتاجهم أفضل ولا مقارنة، فالمقارنة بين علومنا وعلومهم، وبين تعاملاتنا وتعاملاتهم، وتفكيرنا وتفكيرهم، كالمقارنة بين الإسلام والكفر. هو كافر وهذا تفكيره، وهذا مسلم وهذا تفكيره، هو كافر ويصدر منه هذا، وهذا مسلم ويصدر منه هذا، هو كافر ومرجعيته كذا، وهذا مسلم ومرجعيته أعلى. إذن هي نتيجة المقارنة بين مسلم وكافر.

يقول شيخ الإسلام – رحمه الله – في اقتضاء الصراط المستقيم: "ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم (الكفار) كاملا قط، فإذا المخالفة فيها منفعة، وصلاح لنا في كل أمورهم حتى ما هم عليه من إتقان بعض أمور دنياهم، قد يكون مضرا بأمر الآخرة، أو بما هو أهم منه من أمر الدنيا".

فشيخ الإسلام يقول حتى الأمور التي يتقنها الكفار، تكون مخالفتهم فيها مصلحة لنا.

ذلك أنه قد يكون مضرا بأمر الآخرة أو بما هو أهم منه في أمر الدنيا.

فحين أتلقى من الكافر الخطط .. أو طريقة ترتيب أمر ما، هو بالتأكيد سيلهيني عن شيء أعظم منه لو أنني فكرت، لو أنني تدبرت، لو أنني قرأت، لو أنني بحثت، فهو ألهاك بمفضول عن فاضل، والسبب، أنت!

وكفى بالكفر من قصر.

فمسألة الاعتزاز بما نحن عليه، شيء مهم جدا وعظيم، وإذا أخذنا كتابا وقرأناه، هل سنجده يحدثنا عن مسألة تقوى الله عز وجل والحذر من البغي والغل والحسد، والحذر من الانتقام للنفس!

هل سيحدثنا عن العدل وعن الرحمة وعن الإحسان وعن التواصي بالحق، وعن الأخوة، بالتأكيد لن يحدثنا عن هذا كله، فبضاعتهم غير بضاعتنا.

ثم حين أقبل على قتال عدوي ببضاعته هو، ماذا بقي لي؟! حين أقاتله بسلاحه، ماذا بقي لي؟!

ولهذا لما نتحدث عن أن المسألة مسألة قلوب، ذلك أنك تقاتل بقلبك، فإذا تشبع هذا القلب بما عند القوم، فماذا بقي لنا، وكيف سنواجههم؟!

وماذا نكون لولا إسلامنا، ومن نحن لو نزعنا هذه العزة التي هي ديننا!

لسنا إلا رعاة غنم وحفاة وعراة والبطل فينا من يغزو ابن عمه، هذا معنى الحياة لدينا إن ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله.

فلو أننا أخذنا منهم ما لديهم اليوم، ماذا سنجد عندهم؟

سنجد عندهم كل فسق وكل ضلال، كل ما هو فساد لدينهم ودنياهم.

فهل سمعنا يوما في الجيوش الاسلامية عن حالة انتحار؟!

ولننظر كيف هو الانتحار في الجيوش الكافرة، لقد بلغت معدلات الانتحار أرقاما مهولة. ثم كيف حالتهم النفسية؟! تجدهم لا ينامون إلا على الحبوب[4]، كيف حالتهم الاجتماعية وتفككات علاقاتهم؟! إنهم نسخة عن الحيوانات في الأخير، ثم تريد مني أن أترك النور الذي بين يدي وأستلهم فكرتي وأسلوب عملي من هؤلاء!

مسألة المرجعية

إذن مسألة المرجعية تعد من الأمور العظيمة التي لا يستهان بها، ومرجعيتنا دائما وأبدا هي الإسلام.

وسنجد الدول تحافظ على المرجعية لأهميتها، فهي تحافظ على تاريخها وعلى قيمها، حتى أن بعض الدول تمنع غيرها من إدخال ثقافتهم في مجتمعاتها كما تفعل كوريا الشمالية التي منعت دور السينما الأمريكية من العمل في أرضها.

فكل دولة تحافظ على ما تملك، وتعتز به، ولها ثقة به، أما أن تكون أفكارك مستوردة فكيف ستواجه عدوا يوما ما؟!

ولهذا السبب أيضا حافظت الشريعة الإسلامية على مسألة المرجعية بشكل لافت.

فتطالبنا أن نخالف اليهود والمشركين، أن نخالف النصارى، حتى في أبسط الأمور كالمأكل والمشرب، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

[4] الأدوية

لابد أن يكون هناك تمايز بين المسلم والكافر. ولا يعني هذا ألا نستفيد منهم، لكنها استفادة مضبوطة بضابط الشريعة.

ثم هناك فرق كبير بين أن أستفيد من علومهم وأن أدرسها وأتعامل بها.

ذلك أنني لو درست كتب اليهود وتعاملت بما فيها، فكأني أخذت ثيابهم ولبستها، ومن يراني من بعيد يقول هذا يهودي، يلبس طاقية وثوبا أسودا، حتى وإن حملت مصحفا وسواكا، سأبقى في نظرهم يهوديا. فقد أخذت بهدي اليهود.

ولكن عندما يكون اللباس لباس مسلم وفيه بعض التعديلات أضفتها عليه، كإضافة جيب لحفظ الأغراض أو زيادة هنا أو هناك تسهل علي التعامل، فهذا هدي مسلم، وإنما عملت على الاستفادة فقط من الأشياء التي أجازها لنا الشارع.

فالشارع أجاز لي أن أستعين بالخندق، لكنه لم يجز لي أن أزاوج بين الفرس والدابة، فهو من من عمل القوم الذين لا يعلمون، وعلي في الأخير أن ألتزم بما أمر به الشارع.

ولهذا أصبحت مسألة المرجعية من نوازل العصر، إنها نازلة عظيمة حلت بالناس..!

نجد الفوضى عمت طرق أخذ العلم، فأي شخص يأخذ أي كتاب ويقرأه، ويتجول في شبكة الأنترنت فيحمّل أي دورة في مجالات حساسة قد تكون في السياسة أو الأمور الأمنية أو العسكرية وهي خلاصة ما كتب في العلوم السياسة والعسكرية والإدارية التي تدرس في الجامعات بطريقة أكاديمية كتبها العلمانيون!

بل كثير من هذه الكتب ينبذها حتى اليهود والملاحدة والنصارى ثم نقتدي بما فيها ونطبقه على أرض الميدان ونحن المسلمون!

إن اللجنة الأمنية لابد أن تأخذ قرارتها بناء على أسس الدين وليس بناء على الكتاب الفلاني، وكذلك العمل العسكري وكذلك العمل الأمني والإعلامي.

فنحن لا نغش الجماهير في إعلامنا ، نحن لا نهدم غيرنا لنبني أنفسنا، نحن لا نزور، نحن لا نكذب على الأمة، لدينا آداب للخطاب وآداب للكلمة، وهذا الانفتاح العظيم في التلقي يشكل مصيبة.

لا يمكن أن نتلقى من كل أحد، ولا من كل من هبّ ودبّ، فأسلافنا كانوا ينهون عن التلقي من أهل البدع، بينما اليوم نتلقى من اليهود والنصارى، فأصبحت مرجعيتنا قنواتهم ودوراتهم.

ثم كما أحافظ على أكلي وشربي فلا أتناول طعاما فاسدا. علي أن أحافظ على عقلي وذهني، فلا يعقل أن أغذيه بالفاسد!

بل أهون علي أن أطعم نفسي طعاما فاسدا على أن أغذي عقلي بهذه الدورات الفاسدة ويتشبع بها فكري ثم أفرضها على أمة دينها الإسلام.

ولا شك أن أحد أهم الأسباب لانتشار الفساد في زماننا هذا هو التلقي من كل مكان، ولو أن الناس اهتموا بمرجعية واحدة، ومرجعيتنا الإسلام، لكان حالنا أفضل بكثير، فعندما تحل علينا نازلة، نتذكر قول الله تعالى (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . فنرده لأهل الاختصاص، سواء كان عالما أو كان أميرا في مجاله، بهذا نقطع الباب أمام الفساد، لكن أن

نفتح الباب على مصراعيه لنأخذ من الكل ثم نجادل بغير حق، والكل يطرح ما عنده بغض النظر عن صلاحيته وكل إناء بما فيه ينضح، فهذه مصيبة.

فهل يعقل أن يتورع أحدنا في مسألة من مسائل الوضوء ، يعتذر عن الإجابة عليها لعدم قدرته، ولكنه يتجرأ كل الجرأة في نوازل الأمة!

فيحكم على الجماعة الفلانية ويحكم على فلان وعلى الأمر الفلاني بجرأة عجيبة.

ومسألة التلقي نجدها في سيرة رسول الله ﷺ قضية أساسية، ونذكر من المواقف التي تؤكد ذلك، عندما رأى الرسول ﷺ عمر رضي الله عنه وهو يحمل بيده صحيفة .. وكانت هذه الصحيفة من التوراة، وجد فيها عمر موافقة لما أخبر به النبي ﷺ ، ففرح رضي الله عنه، وهذه مجرد موافقة، في حين اليوم الأمر مختلف يصل إلى درجة المحادة.

فوجد فيها عمر موافقة لما عليه النبي ﷺ، فلما رآه النبي ﷺ فرحا بها، غضب، وقال ﷺ: (أمتهوك أنت يا أبا الخطاب)، يعني هذه سقطة أن تأخذ مرجعية من غير الكتاب والسنة، وقال ﷺ : (والذي نفسي بيده لو أن موسى بن عمران ، كان حيا، لما وسعه إلا أن يتبعني).

كذلك يذكر التاريخ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه موقفا في هذا الباب حين تولى زمام الخلافة حيث أخرج نصر المقدسي عن ميمون بن مهران، قال: أتى رجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال يا أمير المؤمنين إنا لما فتحنا المدائن أصبت كتابا فيه كلام معجب (كلام جميل) قال عمر: أمن كتاب الله؟ قال: لا، فدعا بالدرة فجعل يضرب بها وقرأ (الر، تلك

آيات الكتاب المبين، إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون، نحن نقص عليكم أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين).

وقال ﷺ: "إنما هلك من كان قبلكم بأنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درس وذهب ما فيهما من العلم".

وما يزيد المأساة شدة، أننا اليوم لم نلتفت لكتب العلماء بل التفتنا لكتب كتبها كل من هب ودب، ويقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله– : "في بعض الأحيان أجد عند بعض الإخوة في حواسيبهم كتب، أقل ما يقال عنها، العياذ بالله. والله ما يجوز أن يقربها الشخص، فضلا عن أنه يطلع عليها أو يقرأ ما بها، فهذه وسخ، فكيف تحتفظ بها عنك. وإن لم تقرأها أنت قرأها غيرك!".

وفي هذا السياق قال شيخ الإسلام – رحمه الله–: "ما أدري، هل سيغفر الله لما فعل المأمون؟"

فماذا فعل المأمون؟

عمد المأمون إلى أخذ الكتب الأخرى وتعريبها، وكان مهووسا لدرجة كبيرة في هذا الأمر، حتى أنه بنى دارا، سماها دار الحكمة في بغداد ، انكب على جمع الكتب وترجمتها، ثم بعد أن تمت ترجمتها، بدأ الناس يقرأون منها ويأخذون، فدخل في الإسلام ما ليس منه.

ولهذا تساءل شيخ الإسلام إن كان الله سبحانه وتعالى سيغفر للمأمون هذا الذي صنعه.

كذلك نجد بعض أهل العلم حين يحدثك عن السلف، يشير إلى أن عصرهم كان إلى ما قبل أن تترجم الكتب وتعرب.. فبعد أن عربت هذه الكتب، انتهى معها مفهوم كلمة السلف. وانتهى أمرهم لأنه دخل فينا ما ليس منا.

الفرق بين الاستفادة والأخذ بالهدي

إذن يجب أن نفرق بين الهدي وبين أن نستفيد من أحد، قال تعالى: (الحمد لله رب العالمين) وفي الحديث أنه إذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين) قال الله عز وجل: (حمدني عبدي)، وإذا قال : (الرحمن الرحيم)، قال جل في علاه: (أثنى علي عبدي)، وإذا قال: (مالك يوم الدين) قال جل في علاه: (مجدني عبدي)، وإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين)، قال الله تعالى: (هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل) لنصل في الأخير لطلب عظيم، (إهدنا الصراط المستقيم) .

إذن هذا طلبنا من الله عز وجل ونجده في أعظم سورة في القرآن يتلخص كله في مطلب الهداية ، الهداية إلى الصراط المستقيم.

فما هو الصراط المستقيم؟

إنه (صراط الذين أنعمت عليهم) ..

فمن الذين أنعم الله عليهم؟

إنهم النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، نسأل الله أن يجعلنا منهم، هذا صراطهم، وهؤلاء الذي يجب أن نقتدي بهم، ونتعامل كما تعاملوا في مسالك الحياة.

ليس هذا فحسب بل أيضا (إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، بمعنى الهداية لغير طريق المغضوب عليهم، ولا الضالين، والهداية أن تدرك أين أنت ذاهب، فلا نأخذ من المغضوب عليهم ولا الضالين، وللأسف تجد من يأخذ اليوم ممن هم أطم، يأخذ من العلمانيين.

في حين نجد أن من اليهود والنصارى الذين يتمسكون بمعتقداهم، ينبذون الكثير مما يكتب في العلوم العسكرية والإدارية والاقتصادية والسياسية والأمنية، لأنها نتاج العلمنة، بل يحاربونها ويتكلمون عنها بكلام شديد جدا، بينما نجد من قومنا من وبكل بساطة يتخذها مرجعية، فهذه مصيبة كبيرة.

نظرية آدم سميث

وننقل هنا قول آدم سميث، أحد منظري وعلماء الإدارة، وهو تلميذ منداثيل، يقول عبارة جاء فيها: "إن الرذائل الفردية هي فضائل اجتماعية" ..

هذا الكلام أساس لنظريات تطرح ثم تشرح ثم تمارس لكن عندما تشرح وتمارس في الميدان تعرض بطريقة لائقة يتم قبولها.. ذلك أن صاحب البضاعة الفاسدة لا يعترف بفساد بضاعته إنما يقول لك هي أحسن بضاعة، وقد يكون يعتقد ذلك فعلا.

وهنا نرى كيف يقول سميث أن رذائل الفرد هي فضائل للمجتمع!

فهو يرى مثلا أن يعمل أحد في التجارة، ليكن نذلا، فهو صاحب رذيلة يعمل لأجل ذاته بأي شكل من الأشكال وإن خالف الأخلاق والدين، يعمل لنفسه ، فيكذب ويخون ويغش ويخادع، كل هذه الرذائل التي يقوم بها في نظر سميث، هي تصب في خدمة المجمع.

كيف ذلك؟

هو يرى أن هذه الرذائل، ستبني لنا رجالا وتبني لنا اقتصادا..!

بنفس الطريقة كأن يقول لك أحدهم لنكن أكثر من جماعة واحدة، حتى لا يقضوا على الإسلام والمسلمين، ولتسعى إلى بناء ذاتك ولو بالرذيلة ليس مهما فهي في الأخير لصالح الدول، فهذه الصحيفة لتبني نفسها مهما كان الثمن، وهذا الحزب ليبني نفسه مهما كلفه الأمر، ولتستخدم كل الرذائل، والمحصلة في الأخير سيصبح لدينا عضوا قويا، ثم مجموع الأعضاء الأقوياء سيكون لنا جسدا قويا جدا، كل قوي بذاته!

ويعترف بأن هذه قامت على الرذيلة، لكنه يجادل بأن الرذيلة هذه لها فائدة.

والسؤال في هذا المقام: من سينظم الناس؟

جوابه: يتقاتلون بينهم، كل واحد يقاتل الثاني وينافسه، فلو كان عندي 3 أو 4 جماعات، ستقاتل كل جماعة الأخرى، فتقوم في الأخير وتبقى الجماعة الأقوى.. تحت مبدأ البقاء للأقوى، في الأخير أنا أحفظ الأقوياء وأما الضعيف فبقاءه هو هدم للجماعة هدم للدولة، وعندي القوي يأكل الضعيف، والقانون لا يحمي المغفلين.

حسنا من سينظم الأقوياء الذين سنخرج بهم، هذا إذا خرجنا مثلا بخمسة أو ستة أقوياء من الشركات في السوق، كيف سينظموا أنفسهم؟

فيجيبك: ما داموا كلهم أقوياء فهناك يد خفية ترتب أمورهم وتنظمهم! هناك أشياء ستدخل في السوق وتنظمه.

فماذا يقصد باليد الخفية؟

هو يقصد الطبيعة!

وطبعا هو يحدد هذا التنظير بشرط، وهو أن تدع عمل هذا العامل يمر بلا أي رقابة، لا تقيده بالدولة ولا تقيده بجماعة ولا تقيده بمؤسسة ولا تقيده بعرف ولا تقيده بدين ولا تقيده بمروءة ولا تقيده بخلق.

فمن الرذيلة أن تترك غيرك يعاني بسيارته ولا تهتم إلا لنفسك، حتى يتعلم أن لا يضع نفسه في مثل هذا الموقف بسيارته مرة أخرى، ولكن ديننا يقول (ويمنعون الماعون)..!

فانظر كيف هي نظرتهم للقوة، أن تفتح السوق بلا أدنى قيد، حتى تبنى دولة حقيقية، ولا يهم أن تتعدى على السوق الثانية أو الدولة الثانية، أو أن تتعدى جماعة على جماعة أو لجنة على لجنة، حتى ولو كان بالكذب، فهذا يجب أن يدفعك إلى الانتباه أكثر وسنخرج في الأخير بالأقوى!

وبهذا تكون الحرية مطلقة في السوق وفي الإعلام وفي كل مجال عمل.

ثم أين الضابط الذي يضبط الناس من دين من خلق من مروءة من أعراف شرعية!

هذا كله يسقط أمام غاية بناء الذات!

فلو أن لدينا لجنة إعلامية، بهذا الفكر لا بأس أن يكون لدينا لجنة إعلامية أخرى، وكذلك لجنة عسكرية ثانية، تحت مبدأ لا تجمع كل بيضك في طبق واحد. وإن كان المعنى جميل لهذه العبارة إلا أن توظيفها هو السيء!

فهل يمكن أن تكون مرجعيتنا هي علمانياتهم وديمقراطيتهم، فيفقد العالم قيمته وصاحب الاختصاص مكانته والأمير وظيفته. بل بئس الاختيار اختيارهم ونعم الاختيار الإسلام.

من كتب التنمية البشرية الغربية

وفي كتب التنمية البشرية، نجد من يظهر عليه الصلاح أو يبدو من أهل الدين، يقول : وأرجو ألا أكون من هؤلاء الذين يعيشون على الأماني الزائفة وشعارهم في الحياة (يارب)!

وهذا التعليق جاء بعد أن تحدث عن كيف يبني خطة لمدة عشرين سنة الهدف منها أن يصبح مدرب برمجة عصبية، وهي مهمته في الحياة، أو أن يحقق ذلك بعد خمس سنين لكن يستمر لعشرين سنة، وينبه في كتابه على أنك إذا انحرفت عن مهمتك هذه ، فاعرف أنك انحرفت عما خلقت له وعن سبب وجودك!

فلو ناقشنا هذا الشخص في أطر خارج هذا العلم وبرده إلى الأصل سيقول مستدركا: أعوذ بالله لقد كنت مخطأ!

لكنه باعتقاده أن ما هو عليه من علم يدفعه للقول: وأرجو ألا أكون من هؤلاء الذين يعيشون على الأماني الزائفة وشعارهم في الحياة (يارب)، ويضرب لذلك مثالا مثل من يقول يا رب إجعلني غنيا، مجرد أماني من غير هدف واضح ومحدد ولا حتى عمل، بهذه

الطريقة يعلل قوله! فهذه جرأة عظيمة، وانحراف عظيم جدا، أن يقول لست ممن يكون شعارهم في الحياة (يا رب).

ثم ماذا نتوقع من إنسان يقرأ لفلان الملحد أو لفلان اليهودي أو لفلان النصراني؟!

هل سنجد رجلا تقيا وخفيا ورجلا يريد أن يخدم دين الله عز وجل، يريد أن يقدم لدين الله عز وجل أو سنجد بدلا من ذلك قاطع طريق، هذا في أحسن الأحوال إن لم نجد مجرما والعياذ بالله.

وكل إناء بما فيه ينضح، فالمرجعية أساس، ليس الأصل في الإنسان كم يقرأ، كم يبحث، بل الأصل ماذا تقرأ وكيف تقرأ؟

هذا عقلك عندك أمانة، وعليك أن تنتقي لمن معك أفضل ما هو موجود حتى في كتاب الله وسنة الرسول ﷺ (اتبعوا أحسن أما أنزل إليكم) أفلا يردعك هذا عن أن تنتقي ما يفسد العقول والقلوب!

صفات صاحب الحرب

رأينا قول ابن الهرثمي -رحمه الله – في أن على صاحب الحرب أن يجعل رأس حربه تقوى الله عز وجل، والانقياد لأمر الله عز وجل ، وأن يتصف بكثرة ذكره والاستعانة به والتوكل عليه والفزع إليه ومسألته التأييد والنصر والسلامة والظفر وأن يعلم أن هذه الأمور كلها هي من الله عز وجل لا بالحيلة ولا بالعقل الذكي، وتكلم على أمور كثيرة أخرى، وقال أيضا: أن الإنسان ما يدع الاستخارة في العمل وأن يترك البغي والحقد وأن ينوي العفو ويترك الانتقام وعليه بالعدل إلى غير ذلك من صفات.

ولو نظرنا في أصل هذه الصفات نجدها هي ذاتها صفات النبي ﷺ ثم من أخذ بها من بعده من الخلفاء الراشدين ومن الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم، فكأنه بعد أن حدثنا عن موضوع الهدي الخفي عن القلوب، حدثنا عن الهدي الظاهر، والامتثال والاهتداء بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن نعلم أن شرط العمل هو الإخلاص والمتابعة، لهذا تحدث ابن الهرثمي عن إصلاح القلب بتقوى الله عز وجل أي الشرط الأول وهو الإخلاص، ثم عن إصلاح العمل، أي الشرط الثاني وهو متابعة النبي ﷺ.

وهذا يدفعنا إلى طرح مسألة، ما أثر المتابعة؟

فعندما نتابع النبي ﷺ ما أثر هذه المتابعة في العمل؟

لابد أن أثرها هو الصواب، فالنبي ﷺ تعامل مع الأسرى وحين أتبعه في كيف أتعامل مع الأسرى ؟ لا شك أنني سأوفق في تعاملي.

كذلك أبحث كيف تعامل النبي ﷺ مع الهدنة ، ومع كل مسألة في الحرب أخرى، وبهذا يصبح كل مسلم يتعامل مع ذات المسألة بنفس طريقة الرسول ﷺ.

سواء كان في الشرق أو في الغرب في الأخير قرارهم سيكون واحدا وأمرهم سيكون واحدا، لا يتعدى أحد منهم الأمر الشرعي ولا يتجاوزه، لهذا يجب أن ننظر كيف تعامل النبي ﷺ ونتعامل على أساسه.

وهذا الاتباع سيعالج لنا مسألة عظيمة أخرى تعتبر من أعقد المسائل في العلوم العسكرية، وهي مسألة الانقطاع.

فإن حصل انقطاع ما بين القيادة والجند في الميدان كيف سيتم التعامل؟

عند المسلمين هذه المسألة محلولة أصلا، لأن قراراتي مأخوذة ومستقاة من كتاب والله وسنة رسوله ﷺ، فكلما حدث لي حادث وكلما استجد معي أمر ، تجدني أتعامل معه مباشرة كما تعاملت معه الشريعة.

فالمرجعية موجودة.

وقد يقول قائد أنا أجهل هذا الأمر فكيف أتصرف!

نقول الأصل أن يفهم الأمير مسائل الإمارة، وأن يرجع إلى المراجع الشرعية عندما يستعصي عليه أمر.

فيجادل آخر، إذن مطلبي الآن أن أرجع للكتاب والسنة – مرجعيتنا- إذن أنا بحاجة لطالب علم ولست بحاجة لأمير!

وهذا كلام لا أساس له من الصحة، فالأصل ألا يكون هناك انفصال ما بين العمل والعلم، وكلما استجد معي أمر، أبحث مباشرة فيما قاله أهل العلم في هذا الأمر، سواء في المجال العسكري الذي نتحدث فيه أو المجال الأمني أو المجال السياسي أو أي مجال من المجالات، لأننا في الأخير نأخذ أحكامنا من ديننا، ليس من أهواء أو عقول بشرية، وسنجد أن المرجعية محفوظة كما هي بفضل جهد السابقين الذين حرصوا على حفظ العلم، فإذا ما بحثنا عن واجبات الأمير، أو كيف نتعامل مع الأسير، أو كيف نتصرف مع الهدنة، أو غيره من مسائل، نجدها كلها قد صنفت ورتبت بحيث يسهل الوصول إليها.

وتبقى الحاجة أن يكون هناك اهتمام بطلبة العلم وأن يكون بجانب كل أمير طالب علم، يحفظ معه التواصل المباشر حتى في أصعب الظروف، فإن انقطع عنه لجأ إلى كتب العلم

والشرعية وبحث بنفسه، ثم يشاور إخوانه ويستخير الله عز وجل ويتوكل عليه، فلا شك في هذه الحال، أنه سيتخذ قرارا أتى به على الوجه الشرعي، وإن أخطأ أو أصاب، فحاله كما في الحديث (إن أخطأ فله أجر واحد) لا يعاتبه أحد، (وإن أصاب فله أجرين)، إذن هو يدور بين الأجر والأجرين.

لكن عندما يعالج الأمر من تلقاء نفسه ويتخذ قرارا لم يشاور فيه أحدا ولا رجع فيه للمرجعية الشرعية ولا استخار الله عز وجل، فحين يقع حينها في الخطأ سيعاتب عليه، بل حتى إن كان نتاج أمره صحيحا، وليس خطأ.. يعاتب على اتخاذه القرار بهذه الطريقة، فهي طريقة لا تسلم معها النتائج دوما ولا يستقيم بها العمل أيضا.

وقد يقترح أحدهم أن نجمع كل المسائل المتداولة في الميدان ونوزعها بين الإخوة، ليعلم العامل متى يقدم ومتى يحجم، متى يجوز له هذا العمل ومتى لا يجوز، فنقول أن الأصل في التعامل مع مثل هذه القضايا يعني البحث عن الحكم الشرعي، وتحديد مدى جوازها من عدمه، لكن قد تكون هناك أمور في الواقع – دخلت – فحولت الجائز إلى ممنوع، وهذه يجب أن تكون في عناية الأخ في الميدان لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يوازن بين هذه المسائل، وطبعا كما أسلفنا عن طريقة توجيه طالب العلم أو عن طريق الشورى ثم الاستخارة بعد ذلك ، فهي أمور يصعب تقييدها بثواتب.

وهنا نص لمن يعتبر منظر العلوم العسكرية، وهو الألماني كلاوس، صاحب كتاب "عن الحرب" نذكره هنا لا للاستشهاد وإنما لنؤكد أن ما نقوله في هذا المقام نجده عندنا وكذلك

عند غيرنا، حيث قال كلاوس: "كلما بوسع النظرية فعله هو إعطاء الفنان[5] نقاط ارتكاز أو معيارا للتقويم في مجالات محدودة للعمل".

بمعنى يطرحون له قواعد ينطلق منها، أي أن الفائدة منها أنها تمثل نقاط ارتكاز ينطلق منها، ليس ملزما بها لكنها تساعده وتختصر له بعض الأمور.

ثم قال: "والغاية النهائية للنظرية، ليس هي رسم سبل العمل، بل لتطوير وتحسين قوة الحكم عنده".

أي أنه يقصد تقوية الملكة عنده، فيعرف متى يفعل كذا ومتى يتصرف كذا.

ولكن عندنا الأمر أعظم من هذا، ففي الشريعة، تجيز المحرم عند الاضطرار.

ثم ما ضابط الاضطرار؟

تقدم لك الشريعة ضابط الاضطرار كذا وكذا..

وتحدد لك متى يكون هذا الاضطرار ومتى تكون الحاجة له ..

فتبقى عندنا مسألة العلم الذي ينمي به العامل نفسه.

ونخلص في الأخير إلى أن مسألة التعامل مع كل الأحداث.. تعتمد على ما بسطناه من كون الأمور القلبية يجب أن تكون أولا خالصة لله عزوجل، حتى نحقق التوفيق والتجرد لله ونفوز بثمرة ذلك في النهاية ونتجاوز حظوظ النفس وكل عقبة في طريقنا..ويسهل التعامل والعمل معنا.

[5] المقصود به هو صاحب الفن أو الضابط أو الجندي والله أعلم.

ثم تكون معالجة القرارت والأوامر الصحيحة في الميدان بالاهتداء بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، فنتبع هذا النموذج ونتبع هذه القدوة..

ففي الحرب ننظر كيف تعامل النبي ﷺ في الحرب ، ومع الأسرى ننظر كيف تعامل مع الأسرى، ومع العاصي ننظر كيف تعامل مع العاصي، وكذا مع المخطأ وصاحب السابقة، ومع الكبير في السن، ومع الذي يجاهر بالمعصية، وفي الهدنة ننظر كيف تعامل النبي صلى الله عليه وسلم في مهادنته للكفار، وفي القتال كيف قاتلهم!

إذن كلما أحاط المسلم بهذه المسائل كلما كان أقرب إلى الصواب، وكلما جهلها كان أبعد عن الصواب، وهنا نخلص إلى أنها مسائل واجبة علينا، لأن هذا دين، وليس فقط من أجل العلوم العسكرية، ولهذا نأخذها من الفقه من سيرة الرسول ﷺ من كتاب الله ، أو أي كتاب يحوي أحاديث النبي ﷺ ، ولا نأخذها من كتب العلوم العسكرية وإن كانت متخصصة.

وفي هذا المقام ينصح الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله – بكتابين للشيخ مُحَمَّد المنجد، يتحدثان عن النبي ﷺ، أما الكتاب الأول فحول (كيف عاملهم) وأما الكتاب الثاني فحول (الأساليب النبوية في التعامل مع أخطاء الناس) وكذلك ينصح بصاحب الكتيب، الذي أعده الشيخ أبو عبد العزيز، وهو كتاب صغير عنوانه "زاد المجاهد".

تعليق المحقق على موضوع التوكل والاعتصام بالله

يقول المحقق لكتاب مختصر سياسة الحروب: "يكاد يجمع القادة الذين خبروا الحروب، أن الجند يكتب لهم النصر في الميادين ما داموا يعتقدون أنهم جند الله يحاربون لنصرة الحق على الباطل، ويؤيد ذلك قوله تعالى (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت)، الآية.

ومعنى كلامه، أن الجندي أو القائد عندما يقاتل وهو يعتقد أنه يقاتل في سبيل الله عز وجل، وأن الله عز وجل معه، مؤيده وناصره، فهذا تكون معنوياته واندفاعه للحرب أقوى وأعظم، وهذا المفهوم يتفق عليه – سواء – المسلمون أو الكفار، فالكل مجمعين على هذا الأمر.

ومما يذكر هنا ما قاله المفكر الصيني "موتس"، حين ذهب إلى مصر والتقى ببعض الضباط فسألهم : كيف حرضتم جندكم في حرب 67؟ ثم أجابوه بقول: كنا نحرضهم بالأناشيد وأم كلثوم وكذا.

فقال موتس: لماذا لم تحرضوهم بالجنة وبالحور العين.

مع العلم أن موتس هذا شيوعي لا يؤمن بهذه المسائل كلها لكن يعلم أن طبيعة الجند وطبيعة الانسان ، طبيعة البشر عموما تتأثر بمثل هذا التحريض كأقوى ما يكون، وأنه يكون أدعى للقتال وللتضحية عندما يكون الأمر متعلقا بالله عز وجل و بالدين، بالرغم من أنه لايؤمن بالله ولا بالدين، وهذا يدل على أن فطرة الإنسان مجبولة على هذا الأمر،

أمر أن أعظم ما يحرض الإنسان على القتال في سبيل الله هو الحديث عن مسائل الدين وعن معية الله عز وجل.

وقد استشهد الشيخ قاسم الريمي –حفظه الله- بما وجدوه من كتب أثناء دخولهم إلى أبين، حيث يقول الشيخ : "وجدنا كتب التوجيه المعنوي للجيش كلها تعلق الجندي بالله عز وجل، وأنهم منتصرون بالله عز وجل وأن الله عزوجل قال كذا في هذا الأمر..فهم اتخذوا من الدين ما يعينهم في حربهم. ثم لماذا لم يحرضوا جنودهم بالأناشيد الثورية والأناشيد القومية، بالتأكيد لأن هذه أشد تحريضا للجندي".

ونخلص من هذا كله إلى أن سياسة الناس لا تكون ناجعة إلا بأمر الدين.

فكلما وجهنا الكلم إلى أعماق قلوبهم وحدثناهم بالله عز وجل، وأنهم جند لله عزوجل سنجد استجابتهم مذهلة، وهذا بالنسبة لنا كمسلمين واجب كدين وكمعتقد.. ليس فقط من أجل التحريض.. أما الكفار فنجدهم يعودون إلى هذا الأمر الذي يقوم به المؤمنون ابتداء.

ثم ما أثر هذا الأمر في الأعمال العسكرية؟

فلا شك أن الإنسان حين يستشعر معية الله عز وجل وأنه يقاتل في سبيل الله عزوجل ثم يقع النصر، فلا نجده يتعدى.. لأنه جندي لله، فلا يطغى، ولأن النصر جاء من عند الله عز وجل، وليس من عنده فيغتر..

وإن واجه انتكاسة أو انهزاما لا ينهار ولا يهرب، في حين في الجيوش الأخرى، يصاب الكثير من القيادات والجند بالإحباط، بل بعضهم ينتهي به الأمر للانتحار، والبعض الآخر

لا ينام إلا على الحبوب، وأحسنهم حالا ولا حسن في هذا، الذي يفر إلى الخمور والمخدرات حتى يفر من هذا الإحساس وهذه الحالة..

وفي نفس الوقت نجد بعض القيادات الغربية ربما لا تفر إلى الخمور بالرغم من أنها معتادة على شربها، ولكن تتعلق بالكنيسة، تتعلق بأمور الدين الذي لديهم على ما فيها من تحريف، ذلك أن تعلقهم بهذا الأمر يجعلهم أكثر تحملا باعتبار المرء نفسه جنديا عند الله، فإن كتب له النصر كان بها، وإن كتبت عليه الهزيمة ففي الأخير هو يرجو رضا ربه لا مجرد النصر.

ومن هنا أيضا تأتي مسألة نجدها في الساحة بشكل عام، مرتبطة بهذا المفهوم، فكلما ضعف لدى الأخ الوازع الديني والتعلق بالله عزوجل، كلما انهار في الأحداث، وسلم وانعزل وانزوى وتحطم!

في حين أن الصحابة ﵃، وصل الإسلام معهم إلى القمة، ثم مات النبي ﷺ وارتدت العرب، فلم يضعفوا ولم يتباكوا وينتكسوا ﵃ وحاشاهم، ذلك أن الإيمان ينير قلوبهم والاعتماد على الله عز وجل يقوي مسيرتهم، حالهم يردد : نحن جند الله عز وجل، أينتقص الدين وأنا حي، كما قال أبو بكر الصديق ﵁، وقام الصحابة وعملوا بقوة وانتشر الإسلام وجاءت الفتوحات بعد الفتوحات، وكان فضل الله على عباده عظيما، كل هذا ما دام القلب معلقا بالله عز وجل فإن حصل وانهار أو انفصل، تحطم كل شيء وحلت الهزيمة والانكسار.

ونبقى في سياق تعليق المحقق، حيث قال معلقا على مسألة أخرى: "على أن يكون ذلك للكافر الظالم إملاء واستدراجا" ..

بمعنى أن صاحب العدل وصاحب الانصاف في الأصل هو الذي ينتصر، وإن كان المنتصر كافرا فهذا يعني أن هذا النصر سيكون لهذا الكافر الظالم إملاء واستدراجا، وللمظلوم الموالي نظرا وابتلاء.

وبحسب تعليقه فإن الابتلاء هو الاختبار والنظر هو التأخير، قال الله تعالى – عن قول إبليس– (قال ربي أنظرني إلى يوم يبعثون) أي أخرني، والمراد لينظر الله أيصبر العبد على ذلك أم يكفر، فكلمة النظر والتأخير تكون لحكمة يريدها الله عزوجل، وأما الابتلاء، فيبتلي الله عز وجل عبده بهذا الكافر .

وانتصار الظالم على العادل ابتلاء من الله لهذا العادل، هل سيستمر على عدله..؟ هل سيتسمر المسلم على إسلامه..؟ أم هل سينتكس..؟

وهذا الأمر – أمر النصر والهزيمة – لا نجده في مسألة الأمور العسكرية فحسب بل أيضا يرد في الأمور السياسة.

فهم الآن ظلمة وفجرة، وفاقونا في الأمور السياسية والميدان يشهد، وفاقونا في الأمور الإدارية وفي الأمور الاقتصادية، ويرد ابن الهرثمي على هذا بأن النصر الحقيقي ليس هذا النصر الذي يقوم به الكافر الظالم.

مفهوم النصر الحقيقي

ومثال ذلك ما يقوم به الأمريكان اليوم، فقد دخلوا أفغانستان وبطشوا فيها، لكن هل سلطوا على الناس، لم يتمكنوا من ذلك فبعد فترة خرجوا منها، إذن هذا ليس بنصر حقيقي، كذلك في العراق وكذلك في أكثر من منطقة، عندما دخلوا على الناس لم يفتحوا لهم قلوبهم، لقد أخذوا البلاد لكن لم يأخذوا قلوب العباد، بل تحول هؤلاء الناس إلى أعداء لهم وقاتلوهم وأخرجوهم بالقوة.

إذن ليس بنصر النصر المرحلي أو لفترة محددة ثم الخروج.

لكن في الجهة المقابلة والتاريخ يشهد، عندما دخل المسلمون إلى كثير من البلدان، دخلوها أيضا بالسيف، لكن بعد أيام معدودة إذا بالناس الذين دخل بلادهم المسلمون تحولوا إلى جند للمسلمين ففتح الله بهم العالم. وهذا هو النصر بعينه.

نعم فهو النصر بعينه أن تدخل بلدا فيؤمن الناس بما لديك، ويؤمنوا بدعوتك، ويتبعوك.

أما أن تدخل ثم تغلب، فهذا ليس بنصر، بل تبدأ هزيمتك من يوم تنتصر أو تحسب نفسك انتصرت، فأول ما تنتصر (بدخولك) يبدأ الناس يتآلبوا عليك ثم يغلبوك.

لقد دخل المسلمون الكثير من البلدان وفتحوها بقوة ولكن ما لبث أن تحول الناس لصفهم وقاتلوا معهم، كما حصل في حمص، عندما أراد المسلمون أن ينسحبوا في خطوة ترتيب عسكري، فقاموا بإعادة الجزية للنصارى الذي يعيشون في حمص لأنهم لن يقدموا لهم حقوقهم مقابل هذه الجزية وهذا من عدالة الإسلام ورقي العاملين عليه!

فكان الرد أن أقبل هؤلاء النصارى يبكون، وقالوا للمسلمين بل نحن سنقاتل معكم إخواننا النصارى فقط إبقوا معنا، ولما عاد المسلمون لحمص استقبلوهم بالفرح والسرور، وفتحت لهم الأبواب بالرضا والترحيب، وهذا هو النصر الحقيقي.

كذلك يسجل التاريخ موقفا لا يقل روعة للمسلمين، وذلك عندما جاء الحكم على المسلمين في سمرقند بالخروج لكونهم دخلوها بطريقة غير مقبولة في ديننا، وكان عليهم أن يستأذنوا أهل سمرقند فيعرضوا عليهم الإسلام، إن رضوا فلهم ما على المسلمين من حقوق، وإن رفضوا يطالبون بالجزية، في حين دخل المسلمون آنذاك على سمرقند بالسبف مباشرة، فجاء الحكم من القاضي الذي أرسله عمر بن عبد العزيز حينها يقضي بخروج المسلمين من البلاد.

وحين رأى الناس في سمرقند المسلمين يخرجون، رفضوا خروجهو وقالوا لهم، لقد عشنا معكم وعرفنا عدلكم وعرفنا دينكم، ولا نرضى عنكم بديلا.. وهذا هو النصر الحقيقي.

النصر في مجالات أخرى

وليس النصر في المجال العسكري فحسب بل لننظر للمجال الإداري والسياسي والاقتصادي أيضا.

فما معنى أن يبني العدو مؤسسة ويهدم إنسانا، يبهر العيون ببناء ناطحة سحاب اخترقت السحاب ولكن ماذا عن الناس! أخلاقهم ودينهم وأعرافهم ومروءتهم كلها في الحضيض، منحطة، إذن ما الفائدة؟

تجد الرجل يدخل مع زوجته إلى المطعم فهذا يأكل ويحاسب عن نفسه وهذه تأكل وتحاسب عن نفسها! بينهم من الفرقة ما لا يعلمه إلا الله، ثم تحدثني عن النصر أو تقول لي هذا تقدم، هذه حضارة! أي حضارة وأي تقدم هذه التي يعاني فيها الأزواج من التفكك والفرقة.

وجدير بنا في هذا المقام أن نرفق مسألة من موسوعة الرد على المذاهب الفكرية، جاء فيها: "أي نصر هذا النصر الذي معهم؟ أي تقدم هذا التقدم الذي معهم؟ أنظر نسبة الانتحار هل بيننا نحن المسلمين هذا الانتحار على الفقر الموجود؟" ..

نسبة الانتحار بين الشباب في أمريكا تفوق 20 ضعف مثيلتها في أوربا، و40 ضعف في اليابان، حالة انتحار كل 40 ثانية..

فإذا حسبنا في الولايات المتحدة عدد المنتحرين خلال عشرة دقائق فهذا يعني أن قرابة 15 شخص قد انتحروا، إذن أي نصر ؟ أي حضارة؟ أي تقدم أي سعادة يعيشونها؟

كما قال الله عزوجل: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى).

أما عن الاغتصاب ففي الولايات المتحدة صاحبة القوانين والضبط والحزم والإدارة الصارمة وكل مواطن يعرف ما له وما عليه، كم معدل الاغتصابات التي تم تسجيلها في اليوم الواحد؟ يصل معدل الاغتصاب في اليوم إلى 1900 جريمة اغتصاب ، وهذا معدل ويعني أنه قد ينقص أو يزيد من يوم لآخر.

فأين هم أصحاب الأخلاق وأصحاب الانضباط وأصحاب حفظ المواطنين من التعديات، لا أثر لهذا الكلام في الواقع.

وهذه احصائيات حول عدد جرائم القتل في الولايات المتحدة في 1996، ولاشك أنها أهون مما يتم تسجيله الآن، تصل أعداد القتل في السنة الواحدة إلى 15848 أما عدد الذين قتلوا أنفسهم بأنفسهم أي المنتحرين فيصل إلى 30862 فردا خلال سنة واحدة، ولهذا تعاني أوربا كلها مشكلة كبيرة الآن، إنها تعاني من حقيقة أن عدد المنتحرين أكثر بكثير بل بأضعاف عدد الذين يقتلوا في الحروب، فكيف يمكنهم معالجة هذه المسائل، إنه أمر مستحيل، لأن قوانينهم التي يقومون عليها، وهديهم الذي يقومون عليه، ودينهم برمته الذي يقومون عليه مهدوم ويهدم، لقد هدم الانسان فكيف سيجد هذا الإنسان الراحة؟ وأين سيجد السعادة؟ إنه يظن أنه بقتله لنفسه والانتحار فإنه سيحقق السعادة ويتخلص من البؤس الذي هو فيه.

نرجع للإحصائيات التي تؤكد أن عدد حالات الاغتصاب المسجلة في الولايات المتحدة في 1994 في عام واحد، وصلت إلى 102000 حالة اغتصاب، أما في كندا فوصلت إلى 104000 وفي أستراليا 75000 حالة اغتصاب وهذا في سنة واحدة.

طبعا هذا فقط فيما يخص الاغتصاب أما ما بقي من الانحلال واعتداءات ومصائب في المجتمع فحدث ولا حرج، فأين أصحاب القانون ودعاة الانضباط!

صحيح أن لديهم قانون لكنك إذا تمكنت من التحايل على هذا القانون فقد نجوت وإن كنت مجرما. قوم تقوم أخلاقهم على المصلحة والمنفعة، علاقاتهم تقيمها المصالح، فمثلا، ينضبط المرء فيهم مع فلان بسبب القانون.. ويحترم قاعدة "حريتي تنتهي عند حرية

الآخرين" فلا يعتدي عليك . لكن إذا استطاع الالتفاف على القانون، فسنشاهد كيف يكون الاعتداء.

لهذا نرى حجم جرائم السرقات كبيرا جدا، وحين انقطعت الكهرباء في أمريكا في مرة من المرات لمجرد دقائق معدودة سجلت آلاف بل مئات الآلاف من السرقات، بل يقال أن أحد النساء حين لم يتمكنوا أن يخرجوا الذهب من يدها ليسرقوه عمدوا إلى قطع يدها وأخذوه، فقل لي عن أي حضارة وأي تقدم وأي انضباط به يتبجحون..! يسقط كل هذا في لحظة حقيقة.

ثم لننظر لحالات الإجهاض في 1995 في الولايات المتحدة، كم قتل بهذا الاجهاض؟ تقول الإحصائيات قتل مليون ومئتين وعشر ألف و383 حالة، ثمانين بالمئة منها من نساء غير متزوجات، نسأل الله العفو والعافية.

ولننظر في روسيا التي تعتبر أكثر علمانية من أمريكا وتوصف بالملحدة ، سجل فيها في خلال عام 1990 ، 4 مليون ومائة واثنين ألف حالة إجهاض، هذه هي الحضارة التي يريدها بعضهم.

وعدد الأمهات غير المتزوجات في 1994 في الولايات المتحدة بلغ مليون ومئتين وتسعين ألف حالة، في حين بلغ عدد النساء في الولايات المتحدة ممن بلغن 15 عام وأكثر وممن تعشن لوحدهن بلغ 14 مليون وخمسمائة و92 ألف امرأة تعيش لوحدها أما من الرجال فبلغ العدد عشرة مليون ومائة وأربعين ألف يعيشون لوحدهم، فأي تفكك هذا؟!

هل هذه هي الحضارة، أن نشاهد ناطحات ومؤسسات بينما قيم الإنسان في الحضيض، بل حتى المؤسسات التي ينبهر بها البعض، نسمع فجأة أن البنك الفلاني وهو من أعرق البنوك، في دولة من أعظم الدول، انهار فجأة.

فاقتصادهم كله قائم على سراب ليس على حقيقة، هو قائم على أوراق وقائم على مستندات لا يقوم على عملة حقيقة كالذهب، فإذا قسنا الأمور بعقل واتزان سنجد أن حقيقة النصر الذي تدعيه هذه الدول إنما هو نصر موهوم وليس نصرا حقيقيا، بل إن هذه الحضارة موهومة وليست حضارة حقيقة تستحق الاحترام.

ويقول صاحب الموسوعة أن أكثر معدلات الانتحار سجلت في سويسرا، مع العلم أن سويسرا تعتبر من أغنى شعوب العالم ومع ذلك فهي أكثر الدول التي يسجل فيها الانتحار بمعدلات عالية. فمالفائدة من هذه الحضارة وهذا الغنى وهذا التطور إذا كان هذا الإنسان منتهاه أن ينتحر، ثم أي سعادة وأي حضارة وأي نصر يريدون إقناعنا به.

ثم هنا إحصائية لفئة تعتبر القائمة على تطبيق القانون في الولايات المتحدة، وهي الشرطة والتي من المفروض أنها تتصف بصفات من الاتزان والانضباط مميزة، ومع ذلك ينتحر سنويا من الشرطة في الولايات المتحدة 300 ضابط، فهل عندنا في الإسلام ضابط واحد ينتحر؟ ولا أعني بذلك جند الطواغيت فهؤلاء لا نحتسبهم ولا نعترف بهم.

وما نقلناه من إحصائيات ليس إلا عينة من سجلات الإحصائيات الكثيرة لا يسعنا المقام لنقلها كلها.

ونقل هنا تعليق صاحب الموسوعة إذ يقول: "وعلينا أن نعرف أن الكثير من الناس يجهلون هذه الحقائق الواقعية الواضحة أو علاقتها بالتفكير العلماني، ومن المهم أن نذكر أن المعاناة النفسية هي المنبع الأكثر شقاوة للبشر وأنه ليس بالماديات وحدها يسعد الإنسان أو يشقى، فأسرة فقيرة مترابطة سعيدة أرقى مليون مرة من أسرة غنية مفككة تعيسة".

إذن كل هذه الأوصاف عن النصر والحضارة والتفوق والنجاح ليست إلا صفات موهومة، والسبب الأول في هذا أن النصر يأتي على يد الرجل العادل، الرجل المتمسك بحبل الله عز وجل، وإن كان هناك نصر ما أو نصر ظاهر للطرف الآخر فهو موهوم لا أقل ولا أكثر وقد يكون أيضا ابتلاء لفترة محددة وتعود الأمور لمجراها الطبيعي بعد حين. فلا ينخدعن عاقل به.

الباب الثاني: "في حسن سياسة الرئيس أصحابه"

يقول ابن الهرثمي – رحمه الله – : "قالوا الغرض الذي يجري إليه السائس الكامل في سياسة أصحابه ثلاث خصال: المحبة والهيبة منهم له، والمحبة من بعضهم لبعض، وقد يحتاج في اجتماع هذه إلى آلات كثيرة وأعمال لطيفة".

نلاحظ أن ابن الهرثمي حين تناول الحديث عن الرجل الفرد كيف يسوس نفسه قال أن الأمير أو المسؤول يسوس نفسه بتقوى الله عز وجل والالتزام بأوامر الله عز وجل، أو تنفيذ أمر الله عز وجل واتباع هدي النبي ﷺ ، وهي صفات النبي ﷺ، أما الآن فتناول الحديث

عن كيف يسوس الراعي أصحابه، كيف يسوس الراعي الناس، فبدأ بأصحابه. وطبعا كلمة سياسة هي كلمة صحيحة وردت في اللغة وفي حديث النبي ﷺ حين قال: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبيائهم كلما هلك نبي خلفه نبي) ..

"وكانت تسوسهم" هنا بمعنى أنها كانت تصلح أمورهم وتدير شؤونهم وهي من السياسة.

ويذكر أن عمر رضي الله عنه عندما مات النبي ﷺ، رفع السيف وأبى أن يقال رسول الله ﷺ مات، فلما سألوه فيما بعد لماذا فعلت ذلك يا عمر؟ قال: "كنت أظن أن النبي ﷺ سيبقى يدبر أمرنا". بمعنى.. يسوسنا.

فكانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبيائهم، وعمر قال: "ظننت أن رسول الله ﷺ سيبقى حتى يدبر أمرنا". بمعنى أن السياسة هي التدبير، وهذا رأي بعض أهل العلم أن السياسة هي التدبير يعني الإدارة، وطبعا الإدارة أو التدبير بمعنى واحد، ومنهم من يرى أن الإدارة هي السياسة ومنهم من يرى أن السياسة عكس ذلك، ومنهم من يرى أن بينهما تداخل.

والحكمة من هذا الطرح، أننا حين نقرأ: كيف يسوس المرء نفسه، كيف يسوس المرء إخوانه، كيف يسوس عدوه ، كيف يسوس الناس، فإن مسائل السياسة هنا هي مسائل الإدارة.

ويقال: السياسة هي القيام على الشيء بما يصله، وهذا أيضا من تعاريف الإدارة.

ويقال: داورت الأمور، أي طلبت الوجوه مأتاها، فالسياسة هي أن تأتي الأمر من هنا، فإن لم ينفع فتأتيه من هناك فإن لم ينفع فمن طريقة ثالثة .. وهكذا نفس القصة في موضوع الإدارة.

والسائس هو رائض الدواب ومدربها، وهذا معنى السائس في اللغة، أي أنه يسوس الدواب كالخيل مثلا، ويروضها.

وسياستها تعني ترويضها، وحين نقول أن كلمة السياسة هي في الأخيرة الترويض، فهذا المعنى كان يستعمل للدواب، لكن أهل اللغة يقولون بأنه انتقل أيضا للبشر، بمعنى كيف أروض الذي أمامي، كيف أروض الإنسان، فكما أن من الدواب ما هي نافرة، وتحتاج أن نروضها، فيها أيضا ما هي أليفة تحتاج معرفة كيف يتعامل معها، ويوجد من الدواب ما هي بين هذه وهذه .. وكذلك الحال مع الإنسان.

وبهذا نأتي إلى أن السياسة تشمل كيف تتعامل مع الناس، مثل أن يقال أن هذا الأخ شديد، وأنا أعلم أنه شديد، لكن علي أن أعرف كيف أتعامل مع هذه الشدة.

كيف تسوس أصحابك

وأنت بين خيارين في مسألة سياسة الأصحاب، الأمر الأول، إما أنك تؤلفه أي تجعله رجلا أليفا، يألف ويؤلف، يفهم ماذا تريد منه ويفهم كيف يتعامل، أي أنك تروضه.

بمعنى آخر، إن كان شديدا تنجح في ترويضه حتى يتعامل مع الناس بحسن خلق.

أو أنه يبقى على طبعه، لم تتمكن من ترويضه، إذن تبحث كيف تتعامل مع هذا النوع من الخلق.

فمثلا لو أنك تعاملت مع دابة من الدواب وعلمت بأنها تنفر مثلا إذا أنت أخرجتها في وقت الظهيرة..، تجدها عنيدة لا تطيعك، إذن من الحكمة، أن تكون سياستك معها ألا تتعامل معها في مثل هذا التوقيت.

ونفس القصة في سياسة البشر، إن لم تتمكن من ترويض هذا الشخص على الأمر بشكل كامل، فتعامل معه على صفته. وهذا يذكرنا بحديث النبي ﷺ حين قال: (ائذنوا له بئس أخو العشيرة) فبعض الأشخاص لا يمكننا التعامل معهم إلا بالطريقة الفلانية، ولهذا يقال: (شر الخلق عند الله من يحسن الناس إليه اتقاء فحشه)، فهل استطاعوا أن يروضوا فحشه هذا وأن يجعلوه من أحاسن الناس أو رجل حسن الخلق؟ طبعا لم يستطيعوا ذلك! فإذن يجب علي في هذه الحال أن أنظر إلى الجانب الشرعي في سياسة التعامل مع هذا الرجل.

وفي الأخير السياسة، معناها دقيق جدا، ولا تعني فقط كيف أروض الأصحاب على العمل، وإنما أيضا كيف أعرف خلق من أمامي وطريقته وأسلوبه فأكيّف نفسي معه والشريعة راعت هذه المسائل كلها.

إذن نرجع لقول ابن الهرثمي – رحمه الله –: "قالوا الغرض الذي يجري إليه السائس الكامل في سياسة أصحابه ثلاث خصال ، المحبة والهيبة منهم له، والمحبة من بعضهم لبعض، وقد يحتاج في اجتماع هذه إلى آلات كثيرة وأعمال لطيفة."

وقال المحقق، آلات كثيرة أي وسائل متعددة لتحقيق تلك الصفات.

وحين يقول: "الغرض" فهو يقصد الهدف.

و "الذي يجري إليه السائس " أي الذي يسعى إليه الراعي.

و "السائس الكامل " أي الراعي الكامل..

فهو يعني كيف تكون سياسة الأصحاب، إنما تكون بثلاثة أشياء بحسب ابن الهرثمي –رحمه الله –: أولا أن تزرع في قلوبهم محبتك، وتزرع في قلوبهم الهيبة منك، وثالثا أن تزرع ما بين

الجند – ما بينهم البين– المحبة، هذه الثلاث التي تجعل أتباعك أو أصحابك أو جندك يحبوك ويهابوك وتخلق المحبة ما بين الجند أنفسهم.

والخصلتان الأوليتان ليستا من السياسة الشرعية في شيء، وإنما هما من سياسة الملوك، أما الصفة الثالثة – خلق المحبة ما بين الجند بينهم البين– فهذه بالفعل من السياسة الشرعية.

خلق المحبة

ونبدأ بما نرى أنه فعلا من السياسة الشرعية، وهي خلق المحبة ما بين الجند، ليس الجند فقط، بل ما بين الكيان ككل، سواء كان جماعة، أو دولة، أو جمعية، أو فريق.

فخلق المحبة ما بين الأمير والمأمور، وما بين المأمورين أنفسهم وما بين المأمورين وأميرهم وما بين الأمراء إن كان هناك أمراء، هي من المقاصد التي جاءت بها الشريعة، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (تهادوا تحابوا)، أي أن التحابب مقصد، وكذلك الدعوة إليه، بل يقول النبي ﷺ : (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، افشوا السلام بينكم) ..

إذن المحبة أمر مقصود، ولهذا نلاحظ كيف حثت عليه الشريعة لعظمه وأهميته في إصلاح أمور الناس. قال تعالى: (واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)، والنبي ﷺ كما في الحديث فيما يرفعه عن ربه، أنه يوم القيامة يقول: (أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)، والأحاديث في هذا الباب كثيرة منها (سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم رجلان تحابا في الله التقى عليه وافترقا عليه) .

ذلك أن أمر المحبة في الله عز وجل أمرها عظيم، سواء ما بين الرعية أنفسهم وما بين الجند أو ما بين الجند وأمراءهم أو محبة الأمير لجنده، فهذه عبادة عظيمة وانعدام هذه الأخوة وهذه المحبة يورث الفشل، قال الله عزوجل: (ولا تنازعوا فتفشلوا فتذهب ريحكم). فالتنازع يكون نتيجة بغض وفرقة على عكس الحال مع وجود المحبة فهي تمنع الفرقة والتنازع وعندما تهتز الأخوة وتهتز المحبة، مباشرة يأتي البغض والتنازع. لأن عين الرضا تكون حاضرة حتى لو أنك أخطأت في حق أحدهم، عين الرضا تغفر، لكن إن انعدمت هذه العين، حتى لو أنك قمت بالشيء الصحيح، فعين السخط، تبدي لهم الأشياء الحسنة أنها سيئة، فتبقى مسألة زرع المحبة ما بين الكل مهمة ليس فقط بين الجند، وهذا من السياسة الشرعية المأمور بها وأمرها عظيم.

ولهذا نجد أن النبي ﷺ أول ما جاء المدينة بنى المسجد ثم آخى ما بين المهاجرين والأنصار، فمن جهة بنى بيت العبادة وبيّن التوحيد، ومن جهة أخرى ألف أو آخى ما بين الموحدين.

وإن كانت هناك راية ولم تتمكن من ضربها فاضرب حامل الراية ، الاتجاه في الأخير واحد، ولهذا الشيطان كما جاء في الحديث، لما آيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب رضي بالتحريش بينهم، لأن المسألة واحدة، لهذا يجب على الأخ المسؤول أو الأمير أنه يسعى لخلق المحبة ما بين الكل، فإن وجد في بعض الأحيان أن اتخاذه لقرار وإن كان صحيحا سيخلق فرقة بين الإخوة، أو أن القرار فاضل ولكنه سيخلق هذه الفرقة، فعليه أن يتوقف فيه، مثال على ذلك جمع من الجند اجتهدوا وكان لهم أن يحصلوا على مكافأة من الأمير ولكنه رأى أن المكافأة في هذا التوقيت ستخلق جوا من الاضطراب. وستفسد بعض الإخوة على بعض، فعليه أن يتريث، فلا يكافئهم على حساب ألفة الأخوة.

مثال آخر أن يرى الأمير بأن منطقة من المناطق يناسبها الأمير الفلاني لكنه يعرف أن هذا الأمير إذا جاء في التوقيت الفلاني لن يلتف حوله الإخوة لأن قلوبهم تنفر منه. وسيخلق تعيينه في هذا المكان شيء من الفرقة، فمن حق الأمير أن يرفض هذا التعيين وإن كان رأيه صوابا أو أن الشورى انتهت بالإقرار على اختياره. لأنه سيتسبب في الفرقة.

والشاهد أننا عندما نقول أنه من السياسة الشرعية أن تخلق المحبة بين الإخوة، إذن لا تتخذ أوامر أو أفعال تخلق البغض ما بين الإخوة.

مسألة محبة السائس والهيبة منه

نرجع من جديد لقول ابن الهرثمي -رحمه الله-: "قالوا الغرض الذي يجري إليه السائس الكامل في سياسة أصحابه ثلاث خصال، الأولى المحبة، والهيبة منه والهيبة منهم له، والمحبة من بعضهم لبعض، وقد يُحتاج في اجتماع هذه إلى آلات كثيرة وأعمال لطيفة".

قلنا أن مسألة المحبة ما بين الكل هذا مطلب شرعي، وأما مسألة أن يخلقوا المحبة للسائس، وأن يخلقوا الهيبة في قلوبهم له، فهذه ليست من السياسة الشرعية في شيء، وإنما هي من سياسية الملوك، لأن المحبة مطلب، ولكن المحبة والهيبة هذه شيء يوهب ولا يفرض، هو من الله عز وجل ويوهب لقيام الأمير بواجباته.

فمسألة أن نجعل المحبة والهيبة هي غاية فهذه مشكلة، ثم لماذا نجعل المحبة والهيبة هي غاية بدل أن يقوم الأمير بواجباته!

وأن يقوم الأمير بأعمال من أجل أن يحبوه ، ويقوم بأعمال من أجل أن يهابوه، فقد جعل المحبة له والهيبة له هي الأصل، وهي ليست الأصل، هذه نتائج تأتي بعد أن يقوم الأمير بواجباته وقد تقع وقد لا تقع بحسب مشيئة الله، وفي الغالب تقع فضلا من الله سبحانه وتعالى.

لكن أن أسعى إليها، فليس لي أن أسعى إليها، ولنا في عمر ﷺ أسوة حسنة، كان يخاف من موضوع الهيبة التي كان يهابه المسلمون لها، ويدعو الله عز وجل فيقول: "اللهم لا تجعلني ممن آذى المؤمنين بسبب هيبتهم مني" .

فقد يقبل عليه صاحب حق – مظلوم - لكنه لا يستطيع أن يكلمه، لأنه يخاف منه، يتهيبه، فكان عمر ﷺ يسأل الله عزوجل أن لا يكون ممن آذى المؤمنين بسبب الهيبة التي ألقيت عليه، لهذا أن تأتي وتزرع الهيبة فهذا ليس من السياسة الشرعية في شيء.

وقلنا أن الهيبة تُمنح، وهي تمنح من الله عز وجل لعباده الصالحين، وقد تمنح للعالم، كما قد تمنح لعامي من عوام الناس ، تجد له هيبة عظيمة ، ذلك أن الهيبة هي هيبة الدين، هي هيبة الامتثال، وليست هيبة المنظر والموكب والأسلوب الذي يتعامل به.

ونجد الطواغيت يفرضوها باتخاذ أساليب لكي يهابهم الناس، كالسجون والتعذيب والقمع والتهديد، أي وسائل تسمح لهم بفرض الهيبة على الناس يعمدون إلى اتخاذها، بما في ذلك التمايز فمجرد التمايز يخلق منه هيبة، إذن هذه سياسة الملوك والسياسة الشرعية مخالفة لها تماما.

والذي يسعى إلى تحصيل الهيبة فيه نقص في ذاته، لأنه لا يستطيع أن يتعامل إلا بخلق هيبة له، والهيبة كما أسلفنا شيء يؤتى من الله عزوجل ، فمجرد بحثك عنها يعني أنك ناقص ، والأصل ألا يطلبها الإنسان، فأنا لا أقوم بالواجبات الشرعية التي علي من أجل أن أهاب، معاذ الله، أو من أجل محبة الناس، فمسألة البحث عنها، وتوظيف أسباب لتحصيلها هذه ليست من السياسة الشرعية في شيء، وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه قال، أوتي النبي ﷺ برجل ترتعد فرائسه، فقال له رسول الله ﷺ: " هون عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في هذه البطحة".. تأكل القديد أي اللحم المجفف أو المملح، ثم تلى جرير (وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد). وكان النبي ﷺ كما في الحديث، تأتي الجارية فتأخذ بيد النبي ﷺ وتطوف به في سكك المدينة، حتى تقضي حاجتها، هذه الجارية، تأخذ النبي ﷺ وتذهب معه في كل مكان، وهيبته ﷺ ليس لها مثيل، فهل نقول إذن أين هيبة الأمير؟ لأن بعضهم يقول كثرة المساس تفقد الإحساس، فلا تختلط بالناس حتى لا تفقد الهيبة، ولكن هذه لا تستقيم!

ثم هل المحبة أو الهيبة لها أساليب نفرضها على الناس ؟ بالتأكيد لا، وإنما هو شيء في قلب الذي تتحدث معه أو تتعامل معه، يقذفه الله عز وجل.

ثم لماذا نذكر مسألة الهيبة، لأننا نجدها في الميدان فمثلا يقال أن الأمير الفلاني لابد أن يكون أكله مميزا، ومشيه مميزا، وسيارته مميزة وطريقة مقابلته مع الناس مميزة، حتى نحافظ على هيبة الأمير، وما أنزل الله بها من سلطان، تجده لا يمشي إلا في الموكب الفلاني، وتأتي الحراسة قبله، ثم إذا أخطأ، يقال كيف تعاقب الأمير ؟! أنت تسقط هيبة الأمير!

فمن أين أتينا بهيبة الأمير؟ نحن نعلم أن لنا حقوق وواجبات وهو أيضا له حقوق وله واجبات، ولكن في الأثر (من أهان الأمير أهانه الله) إذن له شيء أعظم من هذا كله أو من مسألة الهيبة التي يدافع البعض عنها، يكفي أن له سلطانا من الله عز وجل أعطاه إياه وكفله إياه ، لا نبحث نحن عليه.

وفي نفس السياق هيبة التنظيم أو هيبة الجماعة، فإذا ما بذل الناس أنفسهم وقالوا نحن محكمين لكم فيما جرى، نحن باذلين في الحق، يقول لك أحدهم لا نقبل لأجل أن تبقى هيبة التنظيم!

فمن أين له هذه؟! هذه ما أنزل الله بها من سلطان.

تأتي مسألة أخرى مهمة، هل معنى هذا أن نقول للأخ كن هزليا بدل ذلك، هذه أيضا لا تستقيم.

لأنه بذلك حين يوجه أمرا للإخوة ، فلن يأخذوه بحقه، لأن الأخ عودهم مسألة الهزل فلا يميزون جده من هزله، وعودهم أن الأوامر يعطيها ثم يمزح بها ، فهذا لا يستقيم البتة.

والأشياء التي تخل بالمروءة، والأشياء التي فيها شيء من الهزل، فهذه لا يظهرها الأمير أمام الناس، لأن هذه ديانة، ومن لم يستحي من الناس لا يستحي من الله، وبعض السلف كان يقول: نحن إذا خلونا صبونا، بمعنى أنني إذا اختليت بنفسي لابأس أن أقوم بالحركات الصبيانية لكن أمام الناس فلا يجوز لي أن أتعامل بما يخل، وهذا ينطبق أيضا على بعض الكلام الذي لا يجب أن يقال، قد تقوله لزميلك في خلوة لكن أمام الناس يحسب عليك كدلالة وفلان قد قال كذا وكذا.

هنا نطرح أيضا مسألة أخرى، ففي بعض المشاهد، يرسل العدو رسولا يفاوض عنه، مثلا، في هذا الموقف لا بأس أن يظهر الأمير بمظهر فيه شيء من الهيبة، لأن القوم لا يفقهون إلا هذا، والعدو عندما يرى هذا المنظر يهابه، فالهيبة هنا ليست على المسلمين وإنما على أعداء الله عزوجل ولكل مقام مقال.

مثال على ذلك عندما ذهب عمر ﷺ إلى الشام استقبله معاوية ﷺ بموكب كبير، فلامه عمر ﷺ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين نحن بأرض الله ... فلله هذا، أو بهذا المعنى، فقال عمر: إن كان الأمر كما ذكرت فلا آمرك ولا أنهاك، إذن رأى عمر أن الأصل أن لا يكون هذا مع المسلمين ولكن ما دام هناك علة ، وهذه العلة قوية جدا، فلا آمرك ولا أنهاك، وإنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن.

مثال آخر عن النبي ﷺ في الحديبية، فمعروف كيف كان الصحابة يعظمون النبي ﷺ، كيف كانوا يوقروه ويعزروه، لكن في الحديبية كان الأمر أعظم، فعندما جاء سهيل بن عمرو ورأى، رأى مشهدا لم يره عند الملوك ولا غيرهم، لقد رأى تعظيما عظيما للنبي صلى الله عليه وسلم، ما أن تخرج النخامة حتى يتبادروها، ولما أراد أن يمسك لحية الرسول صلى الله عليه وسلم قال أمط يدك عن رسول الله ﷺ، ما رأينا المشهد هذا في غير هذا الوقت، إذن هنا لها حكمة وهي هيبة ليست على المسلمين.

فلا أخلق هيبة على أصحابي ولا أسعى لها.

وما ينطبق على موضوع الهيبة ينطبق على موضوع المحبة، أتعامل بحب مع إخواني، نعم، أتحبب إليهم، نعم، لكن أن أعمل العمل الفلاني حتى فلان يحبني، وفلان يحبني لكي أسوسه، هذه ما أنزل الله بها من سلطان.

والخلاصة في موضوع الهيبة والمحبة، أنهما شيئان يوهبان ولا يفرضان، وليسا بغاية يسعى لهما الإنسان وإنما هما تحصيل حاصل، يحصلان بقيام الإنسان بواجباته، لكن لايسعى المرء لأن يخلق الهيبة على إخوانه، أو يسعى من خلال تصرفاته أن يحبه الناس ثم يسمعون له ويطيعون.

قد يقصد ابن الهرثمي أن تسوس الناس بالمحبة، هذا الكلام صحيح، (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) لكن مسألة المحبة ومسألة زرع الهيبة، ليستا مقصدا أبدا.

وقد يقول قائل – وهذه المسألة نجدها في بعض الكتب- أن النبي ﷺ، كان مهابا، وكان الكثير من الصحابة يقول أحدهم أنه ما ملأ عينه أو ما أشبع عينه من النظر في وجه النبي ﷺ هيبة وحياء منه ﷺ، فيقول القائل كان حكم النبي ﷺ أو كانت سياسته ﷺ لأصحابه بالهيبة، ثم تغير الزمن، وجاء أبو بكر رضي الله عنه ، وقل إيمان الناس فكانت سياسة أبو بكر مع أصحابه، بالكلام، ولم تكفي الهيبة كي يمتثلوا لأوامره، ثم تغير الزمن، فجاء عمر رضي الله عنه ، فساس الناس بالدرة، ثم تغير الزمن، وقل الإيمان أكثر، وجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه فساس الناس بالسيف.

ويقول كلما جاء زمن كان أشر من الذي قبله، ولهذا تزداد مسألة الشدة، فكانت السياسة بالهيبة ثم كانت بالكلام ثم كانت بالدرة ثم كانت بالسيف، بحسب نظر صاحبه، وهذا الكلام غير صحيح البتة، وإنما عامل النبي ﷺ الناس باللين والرحمة وأيضا بالشدة، فقد غضب ﷺ، وقال ما بال أقوام كذا، وهجر النبي ﷺ، وعاتب ﷺ.

والأصل في السياسة العامة (فبما رحمة من الله لنت لهم)، لكن تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع كل حدث بحقه، ثم لما جاء أبو بكر ﵁، لم يسس الناس بالكلمة بل أول ما بدأ ﵁ استخدم السيف، واستخدامه السيف كان أمام الصحابة أنه على أصحابه، حتى قال عمر ﵁ وغير عمر، كيف نقاتل من يقول لا إله إلا الله؟ مع أن أبو بكر ﵁ كما يخبر النبي ﷺ، (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر) ولكنه استخدم الشدة، بل أبو بكر ﵁ قال لعمر: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام؟ فهذا أبو بكر الرحيم الشفيق على أمة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم استخدم أيضا الشدة، وحين نرى عمر ﵁، على شدته، كما قال رسول الله ﷺ (أشدهم في دين الله عمر) ، كان يقال له أيضا صاحب القلب الرحيم، وكثيرة هي مواقفه المؤثرة التي تؤكد هذه الرحمة.

وكذلك علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عن صحابة رسول الله ﷺ، أجمعين.

فكيف كانت السياسة لديهم؟

إذا احتاج الأمر إلى شدة كانت الشدة حاضرة، وإذا احتاج الأمر إلى لين كان اللين حاضرا، وإذا احتاج الأمر إلى مجرد كلمة، كانت الكلمة موجودة، وإذا احتاج الأمر إلى عتاب كان العتاب موجودا، إذن التعامل كان بحسب مقتضى الحال وليس بالتسلسل المزعوم.

ولو أخذنا بهذا الرأي، في أنه كان في عهد النبي ﷺ الهيبة، وبعده الكلمة، وبعده الدرة، وبعده السيف، فماذا عن العصر الذي بعده؟ وماذا عن اليوم؟ كيف سنتعامل مع من يخطأ؟ هل نفجره بلغم!

فهذه ما أنزل الله بها من سلطان، والقرآن والسنة صالحان لكل زمان ومكان، وما أخبرنا الله عز وجل بشأن كيف نتعامل مع عباده سيستمر إلى يوم القيامة.

ما هي السياسة الشرعية في التعامل مع الأصحاب؟

هي موجود في كتاب الله عز وجل، وفي سنة رسوله ﷺ، قول الله عز وجل، (فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعفوا عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) نرى في هذه الآية كيف يوجه الله عز وجل نبيه للتعامل مع أصحابه، لقد كانت معاملته لأصحابه أساسها "لين"، فسماها الله عزوجل " رحمة من الله عز وجل" وأنه أمر من الله عز وجل وإلا لما استطاعه أصلا.

ثم بين الله عز وجل لنبيه ﷺ أنه لو عاملهم بغير اللين (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) لانفضوا من حولك.

هذه هي سياسة الجند، وكما يقول ابن الجوزي – رحمه الله – وغيره، فإن شريعة الله هي سياسته لخلقه، هو اللطيف الخبير، يعلم كنه هذا المخلوق، بل هو الذي خلق هذا المخلوق، ويعلم مالذي يصلحه ومالذي يفسده.

والله عز وجل يقل لنا أن الذي يصلح هذا العبد هي الملاطفة والملاينة، (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) إذن الأصل هو الملاطفة والملاينة، وقال عز وجل: (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعفوا عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) وقال تعالى لنبيه (واخفض جناحك للمؤمنين) وهنا الحديث على الأصحاب، قال سبحانه (واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين) وهذا أمر الله عز وجل لنبيه، والنبي هو

أرحم الناس بأمته، لا أحد أرحم من النبي ﷺ بأمته ومع هذا يأمره الله عز وجل بهذا الأمر، فالنبي ﷺ صاحب الخلق الأعظم، ولا أحد بخلق رسول الله ﷺ ، ومع هذا يأمره الله عزوجل ، فيقول له (فبما رحمة من الله لنت لهم) (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) يأمره الله عز وجل أن يلاين الناس.

وهو أصلا بهذا الخلق العظيم ﷺ سيتعامل مع الناس أحسن معاملة، ولكن الله عز وجل يؤكد أنه لابد من اللين في المعاملة، ولهذا يقول النبي ﷺ (ما كان اللين في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه) .

وننقل هنا كلاما جميلا لتاج الدين السبكي، وهو صاحب كتاب بعنوان "معيد النعم ومبيد النقم" وجاء هذا التأليف ردا على سؤال وجه إليه جاء فيه: حين يفقد الإنسان نعمة كيف يسترد هذه النعمة؟ فكان الرد بهذا التأليف الذي يتحدث فيه عن كيف يستعيد الإنسان النعمة التي كان عليها، ومن ضمن ما قال: "فإذا رأيت من يعيب على نائب سلطنة[6] انقياده للشرع، وينسبه بذلك إلى اللين والرخاوة، فاعلم أنه يخشى عليه أن يكون ممن طبع الله على قلبه، وأن عاقبته وخيمة، بل حق على كل مسلم الرضا بحكم الله تعالى والانقياد له، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فؤلئك هم الفاسقون) (الكافرون) (الظالمون)[7]" انتهى كلامه.

فالله عزوجل يقول أن عباده ليس لهم إلا الملاطفة والملاينة، ثم يأتي قائل فيقول هذا لا يصلح، فينكر بذلك هذا الأصل.

---

[6]يعني نائب الأمير أو الذي ينوب العمل أو يقوم بالعمل

[7] يشير إلى الآيات الثلاث.

ويكفي حديث رسول الله ﷺ (ما كان اللين في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه) يكفي كل مسلم ، ولكل مسؤول وكل راعي وكل أمير، ليكون له أصل في سياسة التعامل مع العامة ومع من ولاهم الله عليهم.

وهذا دعاء من النبي ﷺ ودعاء النبي ﷺ مستجاب يقول فيه : (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليهم ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به).[8] يقول النبي ﷺ : (ما كان اللين في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه)، وهنا حديث عائشة رضي الله تعالى عنها، أن الرسول ﷺ قال : (يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه).

وفي الحديث أيضا قول النبي ﷺ (خير أئمتكم الذين تدعون لهم ويدعون لكم).

لأن الله عزوجل يقول (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولكم فاعفوا عنهم فاستغفر لهم وشاورهم في الأمر) فسبحانه لم يجعل الأمر يقف على اللين بل أضاف له العفو عنهم، وبهذا فإن الأصل أن العفو هو المقدم، ثم ليس العفو فقط، بل قال مضيفا وتستغفر لهم أي وتدعو الله أن يغفر لهم ويرحمهم ويعافهم ويعفو عنهم ثم مع هذا أيضا تشاورهم .

وهذه الآية نزلت بعد معركة غزوة أحد ، وعرفنا أن النبي صلى الله عليهم وسلم عندما شاور أصحابه فأشاروا بالخروج، ثم لما خرجوا حصل ما حصل وقتل من الصحابة سبعين وحصل للمسلمين ثلمة عظيمة، نزلت الآية هذه بعدها، فرغم أن خروج الرسول ﷺ كان بالمشورة

[8] الحديث في صحيح مسلم

ﷺ وكانت هذه النتيجة! إلا أن الله سبحانه يؤكد لنبيه أن عليه ألا يترك الشورى وأن يتعامل مع أي مسلم يقع في خطأ بالعفو ودعاء الاستغفار له.

هذا هو الهدي الرباني وهذا هو هدي النبي ﷺ في التعامل مع أصحابه، و خلاصة الأمر أن ترويض الناس، وترويض الأصحاب للامتثال للأمر والقيام بالطاعة يكون في الأصل بالملاينة والملاطفة.

ويجب أن ننبه على أن الأمر لا يعني أن توجه له أمرا خارج نطاق الشرع، وإنما يكون أمرك موافقا لأمر الله عز وجل، بمعنى لا يكون فوق الطاقة ولا يكون هذا الأمر مخالف لشريعة الله سبحانه وتعالى.

وهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، لما ولي الخلافة أحضر عنده محمد بن كعب القرضي – رحمه الله– وقال له دلني على النجاة في سياسة الرعية، فقال له: "إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدا".

بمعنى تعامل مع الناس بهذه الطريقة، الكبير اعتبره أبا لك، ومن هو من مثل عمرك اعتبره أخا والصغير اعتبره ولدا، وهكذا تتعامل مع أسرتك ، فأنت توقر أباك وترحم أخاك وتحن على ولدك.

وفي نفس السياق، كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: (كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك).

فمالذي تحبه من أميرك؟ لا شك أن يعاملك باللين والرحمة والعدل والإحسان.

فانظر ماذا تحب أن تعامل به وعامل به إخوانك في الميدان.

فوارق في سياسة التعامل مع الجند

ولو نظرنا في سياسة تعامل الأمير مع جنده من ضمنها ستجد أنه يعالج أخطاءهم، يرحمهم، يقومهم، يأخذ على أيديهم، ولا يأتي بالعقوبة إلا من أجل إنقاذهم، وبشكل عام نخرج بأن الشريعة عندنا في كيف نتعامل مع الجند تهدف إلى إنقاذه من كل ضعف، سواء أكان ضعفا في دينه أو في دنياه، عليه أن يرفع عنه هذا الضعف ويتلمس حاجته، والتلمس: ما يفتقد إليه الرعية، أي الشيء الذي يفتقده من دين أو خلق، في دينه أو دنياه، فيكون لزاما على الأمير متابعة جنده وتحسس مواطن الضعف، ومحاولة علاج هذا الضعف. فلو كان ضعفا في الأمور الدينية، كأن يكون الإنسان يحب الدنيا، كالمال، وحب الشهوات، أو أنه عجول، فيعالج هذه المسائل فيه، ولو رأينا مثلا الغرب أو لغير المسلمين فأسلوبهم معاكس لنا، ذلك أنهم يبحثون عن الضعف في تركيبة هذا الإنسان فيعمدوا إلى تقوية هذا الضعف، فإن كان محبا للمال، أغروه بالمال، حتى يذلوه بهذا بالمال، فإن لاحظوا أنه يحب المدح فعمدوا إلى رفعه، من أجل زيادة الإنتاج ، أما عندنا فهذا الأمر لا يستقيم، فلو كان المرء يحب الرياء نعالجه ،لا نعين الرياء عليه. فنحن نخلصه من نقاط ضعفه لا نستقوي بها عليه ونوظفها لاستغلاله في زيادة الانتاج. فهذه ما أنزل الله بها من سلطان، ولا نرضاها كدين ولا خلق، وليست من شريعتنا، فنحن عرفنا ضعف الإنسان لنعالجه، فكيف بمن هو مسلم، لا نعالجه بالضغط أكثر على جرحه! وهي سياسة عامة لدينا جميعا كمسلمين وليس فقط كتنظيم.

وسياسة الجند تكون بما قاله الله وقال الرسول ﷺ، النبي ﷺ يقول: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجد). إذن نأخذ بأمر الله وما قاله

الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين، في كل أمورنا، ومن هنا نأخذ الحكمة ولو كانت من الكافر، لكن فرق كبير بين أن نأخذ الحكمة وأن نأخذ التوبة، أو الهدي كله، فلو بحثت الآن في الكتب العسكرية سأجد فيها فوائد، وقد تكون فوائد كبيرة جدا، بل لو تأملنا في موضوع الحروب، نجد أن الخندق لم يكن تكتيكا معروفا عند المسلمين، بل أخذه المسلمون من فارس، ومسألة الصفوف، فلم يعرف العرب في حروبهم إلا الكر والفر، أما الصفوف في ذلك العهد فكانت من أساليب الروم وبغض النظر هل أوحي للنبي ﷺ أو هو قام بها أو كان لديه معرفة أنها من الروم، الذي نعرفه أن النبي ﷺ عمل بها، والشاهد أن هذا لا يمنع أن أستفيد من عدوي ولكن الممنوع هو أن أهتدي بهديهم .

كذلك النظريات التي ينطلق منها العدو، فمثلا أن الأصل في الإنسان إذا أكل وشرب استطاع أن يقوم بالعمل على أكمل وجه، ومن هنا توضع القواعد انطلاقا من هذه النقطة.

أما عندنا فلا، يجب على الإنسان أن يعرف لماذا خلق وما هو واجبه وما هي الواجبات الشرعية التي عليه ومنها ينطلق ف (كلكم راعي وكلكم مسؤول عن رعيته).

ويوجد في هدي أعدائنا ما لا يمكننا الأخذ به البتة، ولهذا نشدد على مسألة عدم الأخذ بهدي الكافرين، ولا نمنع أخذ الفوائد، فمثلا، نحن المسلمون قبل المعركة، نستغفر الله عز وجل، نقوم بعمل صالح قبل الغزو، وغيره من القربات، لك عند نابليون القائد الفرنسي المشهور، عندهم قبل المعركة أو قبل الغزو على كل جندي، يجب عليه ويلزم بل يقال يكره، – إذا رفض ذلك– يكره الجند على الرقص قبل الذهاب إلى المعركة لأنها في هديهم

ترفع المعنويات! وكثير من الجيوش الروسية والفرنسية أقامت كليات لتعلم الضباط طرق الرقص، وهذا لا يمت لهدينا بصلة ولا نأخذ به والعياذ بالله.

يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله– : "من خلال التجربة يا إخوة وهذا شيء أنا لامسته في الميدان، كل الإخوة، الذين دائما تقابلهم أو يراسلونك ويطالبوك بأنه لابد من قرارات حاسمة ولابد من شدة، والله لا أذكر أحدا في التنظيم على الإطلاق طالبني بهذا الشيء أنا شخصيا ثم تعاملت معه بأقل من نصف ما طلب إلا وجدت في نفسه غضبا شديدا، حتى ما يبدي لك هذا الشيء لكن تراه في وجهه تراه في معاملته، وهذا أمر طبيعي جدا ، لا تلومه أصلا عليه، وارجع إلى الأصل (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) نحن نتعامل مع الناس يا إخوة ونروضهم بقال الله وقال رسوله، ولا يصلح أمر العرب إلا بهذا، فلا تظن أن طريقة أخرى تنفع ، كيف كان العرب، شذر مذر وكل امرئ يأكل الثاني لكن لما أتى القرآن، انقادوا له، فأنت إذا أردت أن تخالف هذا الأصل لن تفلح".

وأضاف الشيخ قاسم – حفظه الله– : "أنا أذكر في البداية كمثال، وهذا شيء لامسته بنفسي، كيف كان يتعامل بصير رحمه الله مع الإخوة وكيف كنا نتعامل نحن.

أنا شخصيا كنت أقول إلى متى نتسول مسألة السمع والطاعة؟ إلى متى نتكفف الناس خدمة دين الله عزوجل؟ إلى متى نقول إلى متى..!

فرأيت الحقيقة بشكل عملي، والله انفض الشباب، الشباب انفضوا ووجدوا في أنفسهم."

وقد يقول قائل إن الناس بعيدين عن الشريعة لهذا لابد أن نأخذهم بالقوة نقول بالعكس إذا كانوا بعيدين عن الشريعة ثم أخذتهم بالقوة فإن (قال الله وقال رسوله) ستهذبهم ، سيهذبهم القرآن والسنة. وتجعلهم يصبرون، ولكن إن لم يكن لديهم هذا الأصل فسيزيد نفيرهم أكثر وأكثر.

ثم يقول قائل ، قول عثمان ﷺ، (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن) ففي بعض الناس لا يصلح لها إلا الشدة والغلظة أما الملاينة فلا تنفع معه.

الهدي العام

نقول نحن نتحدث عن السياسة العامة والهدي العام، وهو اللين، لكن عندما يأتي قائل ويطرح هذا الطرح وكأنه يريد منك أن يكون هذا الهدي العام عندك أي الشدة، فهذا لا يستقيم. فلكل قاعدة استثناءات.

والهدي العام هو اللين، الهدي العام هو المسامحة هو العفو هو الصفح هو الاستغفار لإخوانك والدعاء لهم، ثم لكل مقام مقال، فإن كان الذي أمامك حقه العقوبة فهذا أمر لا نختلف فيه.

مسألة العقوبة

ثم ليست مشكلتنا في مسألة العقوبة والشدة لكن المشكلة في أمر العقوبة نفسها، (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن) فالسلطان عندما يستخدم العقوبة أو يستخدم أسلوب ردع، فيجب أن يكون ضمن الشرع، أي يأخذ مسائل العقوبة من الشارع الحكيم، أما تأتيني بقوانين ما أنزل الله بها من سلطان وتريد تنفيذها على الناس فهذا أمر لا يجوز، مثال

على ذلك فلان من الناس قصر إذن لابد أن نلغي إعاشة أهله، هذه لا تجوز شرعا، فيحاجج قائلا: حتى نجبره على الالتزام بالعمل؟ من أين أتينا بهذا؟ لا نجدها في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ إنما أخذناها من عقوبات المغضوب عليهم أو الضالين، فلماذا نحمل أولاده وأهله عواقب عمله، هذا ليس في الإسلام.

أو فلان من الناس تعدى على الأمور المالية، فماذا يكون الحكم فيه، وهذه واقعة وقعت عند إحدى الجماعات، حيث تعدى أحدهم على بعض المسائل المالية ، فتم الحكم عليه بالقتل، بحجة أن يعتبر غيره، فمن أين جاءوا بهذه؟! أن يقتل لأنه تجاوز حقوق المال، هذه ليست من الإسلام.

أو فلان صدرت منه كذبة وليس فيها تحريش وليس فيها أذى، مباشرة يطرد، فأي عدالة هذه!

إذن مسائل العقوبة لابد أن تخضع للشريعة. وهذه قاعدة أساسية.

ونواجه في الميدان مشكلة حقيقة في أن التنظيمات بين أمرين: بعضهم مغالي في العقوبة، مثل هذه الصورة التي ذكرناها مجرد أن ينوي جندي الهروب من التنظيم يتم الحكم عليه بالقتل ، فمن أين لك هذه؟ أو مجرد أنه تأخر في السمع والطاعة ممكن أن يسجن مدة سنة وسنتين في السجن! أحكام شدة وغلظة ليست من الإسلام.

وفي المقابل في تنظيمات تحولت مسألة العقوبة عندها إلى أشبه بالشيء الهزلي، وهذا لا يجوز أيضا، هذا خطأ .

فلا مغالاة ولا تمييع في مسائل العقوبة، كلاهما خطأ، بل يجب أن نقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت.

وتبقى لدينا أيضا مشكلة أخرى، وهي موجودة في كثير من الجماعات والتنظيمات واللجان، وهي أن تباشر في معاقبة الفرد، وأنت لم تعلمه! فيقول لك على سبيل المثال: والله لم أكن أعلم أن الهاتف ممنوع!

والله لم أكن أعلم أن هذا الكلام يعتبر من الإرجاف !

وفعلا يكون قد يكون الرجل صادقا لا يعلم ذلك، لهذا قبل أن يقدم الأمير على العقوبة عليه أن يعلم الناس، ويربيهم، فمن تعدى هنا تجوز العقوبة ، ولكن أن تأتي من أول يوم دون إعلام مسبق، وأنت مقصر في تعليمه وتأهيله وتأدية الواجب الشرعي الذي عليك اتجاه هذا المسكين ثم تريد معاقبته فهذه لا تنبغي.

الشدة

وهناك مسألة أخرى ، في أن الإخوة يظن أن الشدة هي أن يكون شديدا ، ملامح وجهه غاضبة، وعبوس ، وكلامه يخرج بسخط، ونحن ننبه على هذه الصورة من صور الشدة، لأن في بعض المرات ترفض مجموعة التعامل مع أخ بقول فلان شديد، لأنها لا تستطيع التعامل معه لهذه الأسباب.

وقد يكون فلان ليس شديدا، فيقول أحدهم، بل شديد في بعض الأمور، مثل أن يطلب منك أن تأتي بدفتر ما حالا، بسيارة في الآن، وهذا نوع من الرجال لا يستطيع أن يتعامل معه أحد، فهو صعب، لأن مجمل طلباته مطلوبة حالا والآن الآن!

ولا شك أن هذا نوع من أنواع الشدة.

مثال آخر، أن يكون لديك عملية تريد تنفيذها، وتستعجل الأمر بشكل يفوق طاقة إخوانك، فهذا أيضا نوع من أنواع الشدة والتضييق عليهم. وهم لا يملكون الاستطاعة لتلبية طلبك.

ويدخل في هذا الباب أيضا فرض الرأي وعدم التسليم، فهو المسؤول فلا يعرف معنى للشورى، لا يتنازل البتة عن رأيه ، ولا تستطيع أن تناقشه مجرد مناقشة ، لأنه شديد في هذا الباب، وهذا أيضا نوع من أنواع الشدة.

وسواء كان يعمل في قائمة الشورى أو أي عمل آخر فلن تستطيع التعامل معه.

يقول الشيخ قاسم – حفظه الله –: "كنت حاضرا في يوم في مجلس شورى فقال أحد الإخوة: إذا ما فعلنا كذا فنحن منافقين، ثم بعد قليل وفي نفس الجلسة، قال: إذا ما سمحنا بكذا فنحن كذابين ، نكذب على أنفسنا، ثم تحدث الأخ الذي يليه، فأثبت بأن كلام الأول لا يصح بل والله أثبت أنه لا يجوز حتى شرعا القيام بالأمر وسلم في الأخير ، فلو لم يسلم سنكون كذابين أو منافقين! إذن مسألة الفرض في العمل هذه نوع من أنواع من الشدة.."

كذلك من صور الشدة، مسألة الفصل السريع، كأن يطلب من الإخوة الاختيار الحاسم إما أبيض إما أسود، عجل يا كذا يا كذا ولكن هذه ليست مسألة رياضيات ، افصل لي في المسألة حالا، كأنها عملية واحد زائد واحد يساوي اثنين، إذن عملية الفصل السريع، لا تناسب، وأيضا أن تقوم بتخيير الأخ ووضعه بين أمرين، ثم حين تسأل: لماذا يا إخوة لا تتعاملون مع فلان؟ يقول الواحد منهم: والله يا أخي دائما يحاصرني في زاوية!

ولا أستطيع أتعامل معه! يخيرني إما كذا وإما كذا، ويدفعك ألا تتعامل مع الأخ.

كذلك مسألة التعامل بالمحاصصة، مثل أن نتعامل في مواضيع المالية، فالأخ لديه ميزانية مليون، ينقص منها خمسين ألف، لا يتركوه أبدا، ويحاسبوه حسابا عسيرا حتى يخبرهم أين ذهب بالخمسين، ولكن هذه فيها شدة على الأخ، وفيها غلظة، لو كان المبلغ الناقص كبير فمن المعقول أن تحاسبه ولكن في كثير من الأوقات لا يتمكن الأخ من تسجيل كل شيء، كما لا ننسى حقيقة أننا أمة كما قال النبي ﷺ أمة أميّة، يعني في الأخير، مهما بلغ الأخ به الحرص لابد لأن يقع في خلل في الحساب، وفي الأصل هذه حوادث من الطبيعي أن تحصل، فلما تأتي أنت وتحاسبه وتدقق عليه. بهذه الشدة، لن يقبل أن يتعامل معك أحد في المستقبل.

ولهذا نسمع أن الأخ في الأخير تجاوز أميره المباشر وذهب إلى الأمير الأول، لأنه لم يتمكن من التعامل معه ولا أن يتفاهم معه.

أميره المباشر شديد وغليظ، سواء عن طريق مطالبته بالأمر حالا والآن الآن، أو بفرض رأيه وإلزامه بأمر بعينه لا يقبل غيره، في الأخير يضطر أن يترك هذا الأمير ليتحول إلى أمير

فوقه يبحث له عن نفس، ولهذا إذن يجب أن نعطي للإخوة شيء من النفس ولا نضيق عليهم.

ولكن يجب الإشارة إلى أنه في بعض الأحيان يكون فعلا تضييق الأمير وشدته في محلها، وليس صحيحا أنه تعدى، ولكن علينا أن نتذكر أن من أمامنا أقل من مرتبة الشدة إنما يأتي بالملاينة والملاطفة.

تفقد الرعية

قلنا قال ابن الهرثمي – رحمه الله–، في الباب الثاني في حسن سياسة الرئيس أصحابه، قالوا: الغرض الذي يجري إليه السائس الكامل في سياسة أصحابه ثلاث خصال، المحبة والهيبة منهم له والمحبة من بعضهم لبعض وقد يحتاج في اجتماع هذه إلى آلات كثيرة وأعمال لطيفة. طبعا تحدث هنا بالعموم، ثم بدأ يفصل، بحيث يطرح كل نقطة بمفردها ويقدم لها تفصيلا فقال: "تفقد من أمور أصحابك جميع ما يعود نفعه عليهم، استزد محسنهم بالتكرمة وقدم قبل الإساءة إلا مسيئهم بالمعذرة، واستعتب مقصرهم بحسن الأدب استعتاب مصلح لهم ، غير مغتنم للزلة ولا معترض للعثرة، ولا مستريح إلى كشف غامض العورة، فإنه لا يصلح للرعية إلا بعض تغابي الراعي عن فلتات زللها".

ويفصل ابن الهرثمي هنا في موضوع كيفية التعامل مع الأتباع، فقال أول شيء عليك أن تقوم به هو أن تتفقد من أمور أصحابك جميع ما يعود نفعه عليهم ، وكلمة تفقد، أي يبحث كأمير عن الأمور التي تنقص ويساعدهم على توفيرها، فالتفقد هنا هو أن يبحث الأمير عن الشيء الذي يفتقدونه.

والشيء الذي يفتقدونه قد يكون من أمور دينهم أو قد يكون من أمور دنياهم.

ويفضل البعض أن يبدأ الأمير بأمور الدين، لأنها الأساس، في حين يفضل آخرون أن يبدأ من أمور الدنيا.. لأنه قد يقع في خلل شرعي بسبب مسائل دنيوية.

وهناك فريق ثالث يقول اجعل الأمرين معا وهذا هو الأصح.

مثال على ذلك، حان وقت الصلاة، فننظر في المجموعة هل فيها تقصير في مسألة الصلاة؟

إذن الواجب ا الآن أن ننبه على موضوع الصلاة ونتفقد أمر الصلاة بينهم.

وجدنا أحد الإخوة يتكلم فيثبط المجموعة إذن الواجب الأولي الآن أن نعالج هذا الأمر.

في أحد الأمكان نلاحظ نقصا في التغذية، إذن الواجب الآن توفير ما ينقصهم.

إذن الواجب أن أتفقد الشيء الذي يصلحهم، سواء في أمور دينهم أو أمور دنياهم ويكون الأمر بشكل متوازي وليس متوالي. وبأولوية الحاجة.

طبعا مسألة التفقد مسألة مهمة جدا وهي تدخل تحت إطار المسؤولية، إذا تم ضبط هذه المسألة من بين مسائل أخرى معدودة، في أي جماعة وفي أي تنظيم، سنجد أن العمل يسير بطريقة سليمة جدا.

ولا يعني هذا أن يكون التفقد من الأمير العام فحسب، بل كذلك الأمير الخاص مطالب بمسئولية التفقد، فهذا واجب عليه، فأمير الجماعة يتفقد الجماعة، وأمير الموقع يتفقد فريقه في الموقع، وهكذا يتفقد كل مسئول أمور دين ودنيا من تحته من الرعية.

ولا يعني التفقد أن يكون لمجرد التفقد بل لابد أن يكون بهدف إصلاح النقص الذي لديهم.

وهنا نطرح مسألة أخرى حين يحتج الأمير بأنه لا يمكنه أن يتفقد جنوده لأنه لا يملك ما يعطيهم، وهذا حال المشاكل مثلا التي تكون في إطار العجز المالي.

فيقول الأمير المطالب بالتفقد، أنا لا أستطيع حل المشكلة ولا أملك مالا!

فهذه من الأمور الخاطئة، لأنه أولا كأمير، يعتبر كأب للأسرة فإن نقص على الأسرة الأكل، فليبحث عن سبل لتوفيره. وفي حالة الأمير فلديه الغنيمة وقد سمحت القيادة مثلا في الولايات بأن تغنم كل ولاية الغنيمة التي في منطقتها. وما تبقى يحال للمالية.

ولهذا حين تكون أميرا ابدأ بمن تعول، وعالج النقص في أمور دينهم ودنياهم ، يقول النبي ﷺ (أيما أهل عراسة بات فيهم امرئ جائع إلا برءت ذمة الله منهم).

مثال في هذا الباب، قد يحدث عند البعض، أن يتواجد المسئول العسكري في منطقة، العمل فيها متوقف، أو كاد أن يتوقف، ولديه عوائل لا يجدون أكلا ولا شرابا.

فيجب عليك كأمير أن تتصرف بما يقتضيه الظرف ولن يلومك أحد.

فمثلا، عندك سلاح ثقيل ولست بحاجة له، أو أنك تجد سلاحا لكنه ناقص، تنقصه إبرة مثلا وهي غير متوفرة، فأصبح السلاح بدونها مجرد خردة حديد في يدك لا أقل ولا أكثر، إذن قم ببيع هذا السلاح وسد الحاجة التي عندك. هذا دورك كأمير.

وتأتي هنا مسألة هل لدي الحق في أن أبيع أم لا؟

فأنت مسؤول عسكري فتعامل مع مسؤولك العسكري العام، أو مع أمير الولاية، يبقى في الأخير أن الأخ هو مسؤول عن من تحته ، فأين هو دورك أنت كأمير، ولم يمنعك أحد من الغنيمة..

عليك بحث الحلول، مثلا أن تجمع الذهب من العوائل كما سرد لنا الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله تجربتهم في اليمن حيث قال: "في منطقة من المناطق، وفي مرحلة ما أخذنا الذهب من العوائل وقمنا ببيعه، وتصرفنا، وسارت أمورنا عدة أشهر ثم يسر الله لنا بغنيمة وقمنا بإعادة أغراض الأخوات، وهذا يعني أنك كأمير يجب عليك أن تتصرف.

أيضا في ولاية من الولايات تداينت فوصل دينها قرابة 400 ألف دولار ثم يسر الله بالغنيمة فأعدنا المبلغ كله، وفي ولاية أخرى كان دينها قرابة 50 مليون، وطبعا الأمير هنا كلف أخ من الأخوة ليس له عمل إلا البحث عن طرق دين، ويسر الله، والشاهد، أنك أنت أمير يا أخي فيجب أن تحمل أنت وليس الإخوة سد ما ينقص.".

فالإخوة حين كلفوك بالعمل يريدون منك أيضا أن تشاركهم ، وتتحمل معهم ، فابحث لهم عن طرق شرعية، وكلّف أخا لمثل هذه المهمة.

ثم إن تفقدت الإخوة فوجدت المشكلة في أخلاقهم وفي دينهم، فكلف داعية ، وإن لم يتوفر لديك هذا الداعية، فابحث عنه في ولاية أخرى، واستعن به، والشاهد أن عليك التحرك بنفسك، إبحث عن المشاكل الموجودة وتفقه فيها ثم انزل عالجها في إخوانك، ويستحيل ألا يكون في الولاية كلها أو في المنطقة أو في الخط أو في اللجنة أخ لا يستطيع الإفتاء، أو لا يلم بعلم شرعي، بل نجد الكثير منهم، وبدل أن تراسل أميرك وتطلب منه

أن يتدخل، ويعالج المسألة عنك، قم أنت بكل ما يمكنك لتجاوزها. وحين يستصعب الأمر لدرجة لا تجد له مخرجا، هنا لا بأس في الرجوع إلى أميرك.

وهنا يتجلى لنا مفهوم المسؤولية فأنت حين تتفقد رعيتك ، هم في ذمتك.

بل يجب أن يستشعر كل واحد منا أن الجماعة أمانة عنده.

أنا في الثغر الفلاني ولدي سيارة فيجب أن أحافظ عليها وأن انتبه لها فهي في ذمتي علي أن أتفقدها واستصلحها ولا أحيل المسألة كلها على أمير الولاية أو أمير الجماعة. فهذا يعد من التفريط في العمل.

وجاء في صحيح مسلم قال ﷺ: (ما من وال يسترعيه الله على رعيته ثم لم يحطهم بنصحه إلا حرم الله عليه الجنة).

عوائل الشهداء

ويجدر بنا أن نذكر هنا مسألة مهمة من المسائل وهي مسألة أبناء الشهداء والاعتناء بهم، وكذا الأخوات أرامل الشهداء، فهؤلاء أيضا في ذمتنا، فلا أقول أنا في لجنة من اللجان وهذا من شأن الأمير فحسب، بل أسعى لخدمتهم فهم في ذمتي أيضا، ليس يعني هذا مجرد أداء الكفالة المالية بلا لابد من تفقد وسؤال أحوال دينهم ودنياهم، والنظر في مشاكلهم ومصاعبهم، وتوصية النساء بأداء زيارات لعوائل الشهداء للتفقد والاستئناس.

فهذه بلاشك أمانة، يحاسب من فرط فيها يوم القيامة.

وقد كان بعض الشهداء تقبلهم الله يتميزون بهذه الصفة بشكل مثير للاهتمام، كما نقل عن سيرة الشيخ القائد المجاهد أبي يحي الليبي – تقبله الله – الذي ما فتئ يتلمس حاجات هذه الفئة ويلبيها.

مسألة الشكر

قال ابن الهرثمي – رحمه الله–: "تفقد من أمور أصحابك جميع ما يعود عليهم نفعه، استزد محسنهم بالتكرمة وقدم قبل الإساءة إلى مسيئهم بالمعذرة".

وقوله "استزد محسنهم بالتكرمة" أي أن تحسن لمن أحسن العمل منه، كأن تقول له أحسنت، وقد كان الصحابة ﷺ يقولون أمرنا أن نقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت. قال الله عز وجل: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).

وفي الواقع نجد بعض الإخوة يحسنون العمل ولا ينتظرون شكرا ولا ثناء، ذلك أن مجرد أن ينتظر منك قول جزاك الله خيرا، يمثل إشكالية كون عمله لله لا للبشر.

وهذا لا يعني أن لا أقوم أنا بواجبي اتجاه أخي المحسن، فأقول له جزاك الله خيرا، أحسنت، وأشجعه على المواصلة والاستمرار، فهذا يعتبر حقا من حقوقه، كما أنه من حقنا ألا يطالبنا بشكره. وفي الحديث (لا يشكر الله من لا يشكر الناس).

فمسألة الشكر مهمة جدا. ولكن تدفعنا هذه المسألة للحديث عن حالات خاصة، يكون فيها الأخ قد أحسن العمل، فتنظر القيادة في كيفية شكره، وقد يقترح أحدهم أن تتم مكافأته بتكليفه بعمل أكبر، وهذا من الخطأ بمكان فأنت تدفع صاحبك للخطأ، فيعتقد

أن كلما أنجز كلم حاز على وظيفة أكبر جزاءً لاجتهاده فيتولد لديه شعور مسابقة للمناصب والعياذ بالله، وهذا ما لا نريده في العمل الجهادي.

لقد كان الصحابة يفرون أساسا من العمل لكن حين يلزم به أحده فعليه أن يقوم به ولكن أن يتنافس ويسابق للحصول عليه ثم يقول هذا لأجل الأجر، فهذه من تلبيس إبليس.

إنما المكافأة قد تكون من قبيل جزاك الله خيرا، أو الدعاء له، بالذكر الحسن والثناء عليه وهكذا.

كذلك في هذا السياق قد يستحي بعض الإخوة من قول جزاك الله خيرا للمحسن.

وهذا ليس من هدي النبي ﷺ لقد كان ﷺ إذا قيل له فلان أحسن، يدعو له ويذكره بخير، ويجازيه، ولا يذكر عن رسول الله ﷺ في سيرته العطرة من موقف ثناء على عامل إلا وأعطاه حقه من الثناء.

فهذا هدي النبي ﷺ في التعامل مع النفس البشرية .. ومنه نتعلم.

ثم متى يكون الشكر؟ لا يعقل أن نشكر العامل كل لحظة وحين، بل المقصود أن يكون الشكر لحظة التفقد ومتابعة الأعمال، فمن أحسن في عمله يقال له جزاك الله خير وكتب الله أجرك ويشجع ويعان على العمل الحسن. والمخطأ كذلك يقال له أخطأت ولكن من الإحسان إليه عند خطأه ألا تكون ثغرة يلام عليها باستمرار، بل هو مجرد خطأ في بحر حسناته.

كذلك يحصل الشكر عند الملمات والمدلهمات، حين يبلي العامل البلاء الحسن، فهذا وقت مناسب لشكره. وليس بالضرورة أن أشكره عند كل جديد، وعلى كل صغيرة وكبيرة، أو أنه لا يصلح عمل عامل إلا بشكره!

ولكن من أخلاقنا وهدي نبينا ﷺ أن نشجع الناس على فعل الخير، ومن قام به نشكره ونحرض الناس بذلك على اتباعه.

قال تعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف)، وهذه مثلا لم تحددها الشريعة لهذا نأخذها بالشيء الذي ليس فيه إصراف ولا يكون فيه إقتار في مسألة الشكر.

وجاء في سراج الملوك، لفتة جميلة جدا، إذ يقول الكاتب: "وازجر المسيء بإثابة المحسن كي يرغب في الإحسان."

أي أنني حين أريد عقاب المسيئ فإنني في الواقع أشكر المحسن! أما المساواة بينهم فهي معاقبة للمحسن.

وجاء في مآثر الإناثة في معالم الخلافة: "ولا يكونن المحسن عندك والمسيء في منزلة واحدة فإن في ذلك ترغيبا لأهل الإحسان وترهيبا في أهل الإساءة".

التعامل مع المسيء

ودائما في سياسة الجند، قد علمنا كيف نحسن للمحسن، فماذا عن المسيئ؟

بحسب ابن الهرثمي –رحمه الله– فعلينا أن نقدم إليه بالمعذرة، وليس المقصود منها أن تعذره، فهذا باب آخر، وإنما المقصود ألا تعاقبه حتى تنبهه.

فالإحسان عجّل فيه وبادر إليه ما استطعت ولكن في الإساءة لا تبادر بها قبل المبارة بالتنبيه ثم قال: (واستعتب مقصرهم)، والمقصر هو الذي يتأخر ويتباطأ ويسوّف، لا يفي بعمله في موعده، فهذا يجب عليك في البداية أن تستعتبه، وليس معنى هذا أن تخرج كل ما في صدرك من عتاب وذم ثم تقول هذا استعتاب. بهذا الشكل أنت تدمر من أمامك.

ولكن استعتبه بحسن الأدب استعتاب مصلح له، ليس الهدف التقريع والتشديد والتأنيب المستمر إنما المقصود التنبيه والتذكير وفي الأخير أنت تصلحه.

والإصلاح يعني ضرورة الانتباه لألفاظك والوقت المناسب للطرح ولطريقة الطرح أيضا.

فلا يعقل أن يأتيك عامل سعيدا بما قدم، وفي تلك اللحظة بالذات أثقل عليه بالملامة لخطأ ما، بل أتركه وإن كنت أعلم أنه أخطأ ، وأجعل العتاب لما بعد.

وأضاف ابن الهرثمي –رحمه الله– في التعامل مع هذا المخطأ، فقال: "غير مغتنم للزلة ولا معترض للعثرة."

فلا تعترض بشكل مباشر يشعره أنك تبحث له عن الزلة، أو كأنها غنيمة مغتنم للزلة.

وفي الحقيقة وإن كانت النفس البشرية ضعيفة، إلا أن الأصل ألا يكون بيننا من يحبث عن زلة أخيه، أو يفرح لها ويحسبها غنيمة!

قد يوسوس الشيطان لبعض الإخوة، فحين يتعامل مع أخ من النوع المتعب في العمل، فبمجرد أن يرى الأخ أخطأ، تجده يطير فرحا، فهي فرصة للمحاسبة والتأنيب ، وهذا خطأ فالمفروض أن يستصلحه، لأنه مهيأ للاستصلاح في تلك اللحظة.

وفي الواقع أنت بين خيارين اثنين إما أن تحرجه أو تستصلحه، ونحن نرجو الاستصلاح وهذا دأب التقي.

ثم قال ابن الهرثمي – رحمه الله–: "ولا مستريح إلى كشف غامض العورة".

فلا تعتقد أنك حققت سبقا وأنجزت خيرا كبيرا بمعرفة ثغرة فلان!

فأن تكون كشفت سر فلان، على أنه مثلا يتعاطى الحشيش، بهذا أنت تدفعه للجرأة على المعصية، فبعد أن كان يتخفى منك ويتستر أصبح يتعاطى المعصية على مرمى بصرك..

والسبب أسلوبك، وفرحك به، فلا تتعامل كأنك ارتحت إلى كشف غامض العورة، فتتبع الناس لعوراتهم حتى تفسدهم.. وجاء في الأدب المفرد عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم".

ولا أسوأ من أن تصبح المجاهرة بالمعصية سهلة أمامك وأمام غيرك، ونضرب هنا مثالا قصة المقتدر بالله، وهو من العباسيين كان بيده الملك وهو في سن صغيرة ، فتعرض إلى انقلاب من بعض أصحابه، وهو أبو المعتز. حيث جمع أغلب القضاة والوزراء وتمكن من الأمر، ووضع المقتدر بنفسه في السجن، وشاء الله أن تكون مجموعة من الناس رفضت أن تسلم نفسها أو تستسلم، وهمت باتجاه ابن المعتز، فما أن رآهم حتى هابهم وهرب، وتم الأمر للمقتدر من جديد، وحين عاد، نصحه الوزير ابن الفرات نصيحة ذهبية يومها، فقال له:

لو أنك أخذت الناس بما عملوا، أو تتبعتهم كلهم لأفسدتهم، وستدفعهم لقتالك ومواجهتك، وإني أنصحك أن تتغاضى وتنسى ما رأيت، وتتخلص من هذه السجلات. ذلك أن السجلات كانت تحمل أسماء من تورط في الانقلاب.

فعمد المقتدر وألقى بهذه السجلات في نهر الدجلة، وانتهت مع هذه الحركة الذكية العداوات وحاز على شكر الناس لفعله.

وعاد الناس لبيوتهم واستقرت الأمور.

ولو أن المقتدر، تتبع كل فرد لعقد الأمر أكثر، فالمقام مقام فتنة دخل فيها الصالح والطالح وقد انتهت، فلما إثارتها من جديد؟! وكما قال ابن الهرثمي – رحمه الله-: "فإنه لا يصلح الرعية إلا بعض تغابي الراعي عن فلتات زللهم".

وهذا من السياسة الحكيمة "التغابي" أو التغاضي عن كثير من المسائل عند الخطأ..

وفي بعض الأحيان وخاصة وقت الشدة قد يخرج من المرء كلمة فيحاسب عليها حسابا عسيرا، بينما الأفضل التغابي والتعامل كأنها لم تصدر.

وقيل "ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه متغابي" أي أن المتغابي هو السيد، وهذه من سياسة السادة.

وقد علق المحقق على هذه النقطة فقال: "هذه المعاملة هي الحكمة نفسها في سياسة الجند فإنها تأسر قلوبهم وستخرج إخلاصهم في الميادين".

وهذا أمر بديهي، أن يرى الإنسان صنيعك عندما يصله خبر إساءتك، فيرى أنك تجاوزت عنه، بل وصل الأمر أنك لم تفاتحه في الأمر أساسا. حياء منه.

فيكون من الطبيعي أن يحفظها لك كما حفظتها له.

ويقول، كما سترني والله لأسترنه. والله لأشكرنه.

وهذه كلها تدور في فلك أخلاق المسلم.

وستر الأخ المسلم لا يكون في الخير بل يكون في المعصية.

ثم قال المحقق: "أما الشدة فلا تأتي إلا بنتائج عكسية، وإن تغابي الرئيس عن ذنب المذنب يجعله دائما في حذر منه ويعمل جاهدا في إخفاء ذنبه عنه ويحاول أن يصلح نفسه أمامه". فإذا استحى من أميره فهو يستحي من رب العالمين ويترك هذا الذنب، لكن إذا جاهر به فقد سقط، وفي الحديث: (كل أمتي معافى إلا المجاهرون). فلنكن سببا لاستصلاح إخواننا لا إفسادهم.

معاملة العامة كخاصة

ونستمر في نفس الباب في حسن سياسة الرئيس أصحابه، حيث قال ابن الهرثمي – رحمه الله–: "إجعل عامة أصحابك في لين الكلمة بمنزلة الخاصة من غير أن تنقص أحدا من ذوي البلاء حقه وثوابه، ولا تساوي به من لا بلاء له".

وقوله: اجعل عامة أصحابك في لين الكلمة بمنزلة الخاصة ، أي اجعل العلاقة بينكما مميزة، معاملة راقية وهذا الهدي العام في التعامل مع إخوانك.

وفي هذا المقام يقص علينا الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله قصة– عايشها بنفسه، إذ يقول: " جئت مع أخ لي من سفر، واستقبلنا أخ آخر لنا، استقبال حفاوة وكرم، فقد كنت غبت عنه ثلاث سنوات، ولكن الاستقبال الكبير كان بي فقط وليس لمن يرافقني،

حتى وقع في نفسي أن بينهما عداوة. ولكن بعد معاينة، وجدت أن أخونا حين يريد السلام، تكون بحسب مكانة الأخ الذي يزوره، فإن كان ممن يحبه ويبجله ويعتز به، فهذا يقابله أحسن مقابلة، لكن عامة الأخوة فلا ينالوا منه اهتماما. وهذا من الخلل، وهذا خطأ، فلا ننظر إلى طبيعة المنطقة أو طبيعة تركيبة الناس إنما نتبع الهدي النبوي الشريف. ولننظر كيف تعامل رسول الله ﷺ مع عمرو بن العاص، فلم يمض على إسلامه عدة أشهر وكان أميرا على معركة ذات السلاسل، وجاء للنبي ﷺ يسأله فقال بعد أن عرف المعاملة الحسنة والتكليف بالعمل : يا رسول الله من أحب الناس إليك؟ فقال النبي ﷺ: عائشة، قال : من الرجال يا رسول الله، قال : أبو بكر، أبوها، قال ثم من ، قال : عمر ، والنبي ﷺ لا زال يعدد لي أناس فخفت أن يجعلني آخرهم فسكتت[9]. فلما رأى معاملة النبي ﷺ بهذا الرقي، وأنه عامله كما يعامل الخاصة ظن عمرو رضي الله عنه أنه أحب الناس إلى النبي ﷺ."

إذن أعامل العامة كما أعامل الخاصة، وقال ابن الهرثمي: "من غير أن تنقص أحدا من ذوي البلاء حقه وثوابه ولا تسوي به من لا بلاء له."

مسألة الحقوق والمنازل

وهذا يعني ألا نخلط بين مسألة التعامل ومسألة الحقوق والمنازل. فصاحب سابقة وصاحب هيئة قدم في سبيل الله عزوجل يبقى له اعتباره وله منزلته أحافظ عليها وعلى حقوقه، فمثلا أقدمه في المشورة أكثر من غيره وآخذ منه الرأي أكثر من غيره، وأقبل شفاعته أكثر مما أقبل شفاعة غيره، هذه جميعها من الحقوق.

[9] الحديث في صحيح البخاري ومسلم

قال تعالى: (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير).

ويقودنا هذا إلى مسألة مهمة، فرسول الله ﷺ يقول: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجد).

وسنة الخلفاء الراشدين هي سنة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ أجمعين.

ولو نظرنا كيف كان يسوس أبو بكر ﷺ الناس و كيف كان يسوس أصحابه، لوجدناه كما في الحديث (أرحم الناس بأمتي أبو بكر وأشدهم في دين الله عمر).

فأبو بكر ﷺ كان في سياسته مع أصحابه بشيء من اللين أكثر من عمر، وعمر بشيء من الشدة، إلا أن كلاهما كان يحافظ على تقديم صاحب السابقة، ويعفو عن ذوي الهيئة، تماما كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ إذ يقول في الأنصار ﷺ : (خذوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) ، فتجد الصحابة كلهم تعاملوا مع الأنصار بهذه الوصية معهم.

فنحن نتحدث عن التسوية في المعاملة، أما الحقوق ففيها تفاضل.

وحين ننظر إلى عمر ﷺ نجده قد عمل على المفاضلة في الحقوق على عكس أبي بكر ﷺ، مثال على ذلك في العطايا والمعاشات.

فعندما جاء عمر إلى أبو بكر رضي الله عنهما وقال له: والله لا أسوي بين من قاتل مع رسول الله ﷺ ومن قاتل رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر ﷺ: فضائلهم عند الله فأما هذا المعاش فالتسوية فيه خير.

ولعل أبو بكر ﷺ رأى أن هذا يدخل في المعاملة بينما رأى عمر ﷺ أن هذا ربما يدخل في الحقوق، مع أن عمر ﷺ في آخر عمره رأى أن يرجع إلى قول أبي بكر ﷺ ، عندما كان يدخل مسلمين جدد ولديهم عيال كثر، فيرى أنهم لا يحصلون إلا على الشيء اليسير بينما المسلم من أصحاب السابقة ربما يفيض عنده المال ، فعزم ﷺ أن يسوي بينهم. وتبقى المسألة من السياسة الشرعية ، تعتمد على الظروف والحاجة.

ولكن يجب أن ننتبه إلى أن أبو بكر ﷺ كان صاحب ملاينة وملاطفة وعفو، أكثر من عمر بكثير، وعمر كان يحاسب على كل صغيرة وكبيرة، فعندما نرى أن عمر كان يحاسب على كل صغيرة وكبيرة ولكن في المقابل كان يفاضل بين الناس، فهو من النوع الذي يحاسبك على الجزئية لكن يعطيك، فهو بعكس أبي بكر ﷺ، الذي كان يتغاضى ولا يحاسب في الكثير من المسائل، ولكنه كان يساوي بين الناس. وهذا من التوازن والعدل.

فكأنما الحال، مثل أن يشتكي أحدهم من شدة ملاحقتك ومتابعتك له في كل صغيرة وكبيرة ثم حين يطالبك بالشيء الصغير الذي هو له لا تعطيه! فعالج هذه عمر ﷺ بأن أعطى بالتفاضل بين الناس. ومن أراد أن يأخذ بهدي عمر ﷺ فقد تستقيم في حقه المفاضلة أما من أخذ بهدي أبي بكر ﷺ فالتسوية قد تكون في حقه أفضل. وهذا من رحمة الله بالعباد.

خفض الجناح

وفي نفس الباب، نجد أن خفض الجناح من الأمير للمأمور ومن المأمور إلى الأمير، أصل التعاليم الإسلامية ، وهذه التعاليم كلها جاءت للأمير وجاءت للمأمور، فمثلا نجد الأمانة وكذلك الصدق، واللين، والرحمة، وحسن الخلق فهي صفات للجميع، فأنا أخفض جناحي للمؤمنين وإخواني يخفضوا جناحهم لي، الأمير يخفض للجندي والجندي يخفض جناحه لأميره.

لكن تبقى صفات تجدها في الحقيقة تختص بالأمير دون المأمور.

ثم إن خفض الجناح ليس فقط بين التنظيم نفسه وبين الجماعة الواحدة وإنما الآية موجهة (للمؤمنين) يعني التنظيمات الثانية كذلك من المؤمنين فنخفض جناحنا لهم ولا نحصرها فقط بيننا كلجان أو كولايات أو كإخوة "مجاميع"، فهذا لا يستقيم، بل هذا هدي يعمم ما بيننا وما بين الجماعات الأخرى وما بيننا وبين كل مسلم.

وكل مسلم له حق خفض الجناح.

ويقول أهل العلم وأهل التفسير أن خفض الجناح يعني التواضع والكلمة الطيبة والخلق الحسن. أما أهل اللغة فيقولون الجناح هو اليد والساعد والكتف، والطير له جناح يمين وجناح يسار، والآية تقول (واخفض جناحك للمؤمنين).

مثال يقرب الصورة، حين تستقبل أخا لك، تستقبله بقول يا مرحبا يا مرحبا، وكل ما كان له معزة في قلبك تنزله بانحنائك لأسفل، للكرسي، للأرض، وتقول اجلس هنا، فهو خفض حتى بالمعنى الحسي، بل إن بعض أهل العلم تكلم على موضوع الطير لما يخفض

جناحه ليقي أفراخه من الرياح والمطر وهذا معنى خفض الجناح لهم، وهذا حاله أيضا حين حتى يحلق فوقهم يعلمهم الطيران.

وهذا هدي عام بين المؤمنين، (واخفض جناحك للمؤمنين).

يقول الشيخ قاسم الريمي حفظه الله: "سألني سائل في مسألة خلال دورة تعليمية، وكان سؤاله على علاقة مع خفض الجناح، فقال: لو أن أخا ما استدعاني لوليمة، هل ألبي دعوته؟ فقلت نعم تذهب إليه، قال: لكن أنا عندي رأي، قلت: تفضل، قال من الأفضل أن آتي به عندي، في مركزي، حتى يشعر باهتمامي به ورفعي لمقامه.

وهذا من الخلل العظيم ، فهل الإمارة رفعة؟ بل إن الجندية أعظم، وإنما الإمارة بلاء كما قال عمر ﵁ (إني مثلكم ولكني أشدكم حمل).

فإذا كان ينظر إلى الأمارة أو المسؤولية على أنها والله منزلة فهذه مشكلة، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولو دعيت إلى كراع لأجبت) هذا النبي ﷺ، وكانت تأتيه الأمة فتطلب من النبي ﷺ أن يشفع لها ، فيذهب إلى أهلها يتوسط لها عندهم ، يخففوا عنها في العمل أو يعتقوها، وهذا النبي ﷺ يقول (أن أمشي في حاجة أخي حتى يقضيها أحب إلي من أن أعتكف في مسجدي هذا شهر) فعندما أقول أنزل إلى الإخوة، فليس المقصود أنزل كمرتبة أو رتبة أو منزلة ذلك أن عندنا الجندي أعظم من الإمارة.

ومن شعر في نفسه أن الإمارة منزلة ويسعى إليها فليعلم أنه على خلل، ولهذا الإسلام يربي أصحابه فيقول من طلبها لا يعطها.".

مسألة التفويض

وفي نفس باب حسن سياسة الرئيس أصحابه ، قال ابن الهرثمي – رحمه الله–: "فوّض إلى قوادك وولاة جندك أمور أصحابهم، ورضهم لهم من غير أن تأذن لأحد في بسط يده عليهم من أخذ مال أو عقوبة. إلا عقوبة أدب في صغائر الأمور، فأما غير ذلك فلا يلينّه غيرك، أو صاحب أحداثك بأمرك".

وحين يقول: فوض إلى قوادك وولاة جندك أمور أصحابهم. فهو يتحدث هنا عن موضوع التفويض، والذي هو سياسة الجند، فمن سياسة الجند مسألة التفويض، ذلك أنك لن تستطيع إدارة العمل كله، ولا تستطيع متابعة الناس كلهم، لهذا يساعدك في هذا التفويض.

فكيف أفوض؟

أن ترد الناس إلى أمراءهم والنبي ﷺ كما في موضوع بيعة العقبة وفي موضوع غنائم حنين ، قال ﷺ: (أخرجوا إلي نقباءكم).

فأنت تتعامل مع المجموعة الصغيرة وهي التي سترتب لك المجاميع الكبيرة. وفي الميدان الأخ الذي يباشر العمل يعلم الأنسب له. والتفويض عندنا في الجهاد تعكسه اللجان والولايات.

ثم هل التفويض من مسائل السياسة أم من مسائل الإدارة؟

وفي الواقع فإن الاهتمام بكتب السياسة الشرعية هو ذاته الاهتمام بالإدارة ، ذلك أنني أجد مسائل الإدارة في كتب السياسة الشرعية، ومن هنا ننصح من أراد المسائل الإدارية بالتوجه لكتب السياسة الشرعية لا يلجأ لغيرها.

ثم ما فوائد التفويض؟

عموما يرى الناس التفويض أن توزع العمل بيننا، ونتشارك، (أمرهم شورى بينهم).

ويكون الإنجاز بهذه الطريقة أنسب. فضلا على أن التفويض يسمح لك ببناء رجال. وتشتيت العدو، واستمرار العمل ، إلخ.

فمثلا يكون على أحد الإخوة ضغط كبير في العمل ولا يستطيع أن يقوم به كله، وهذا من الخلل. ويأتي التفويض ليخفف عنه ويحسّن من أدائه.

فهذا عمر ﵁، حين استلم الولاية، استدعى الصحابة والناس وقال: من كان سائلي عن الفرائض فليأت زيد، ومن كان سائلي عن الفقه فليأت معاذ، ومن كان سائلي عن المال فليأتني فإن الله جعلني خازنا وقاسما. فقد رتب عمر رضي الله تعالى عنه الأعمال وجعل أمين هذه الأمة، وهو أبو عبيدة بن الجراح على بيت المال، لهذا عندما جاؤوه يشتكون أحد الصحابة، عياض بن غنم ﵁ على أنه لا يحسن التصرف بالمال، أو لتقديم شكوى في جزئية مالية فقال ﵁ : إن هذا ليس من شأني إنه من شأن أبي عبيدة، وهذا هو مفهوم التفويض، اذهب إلى أميره المسئول عنه ينظر في شكواك. فالتوفيض له فوائد عظيمة جدا، ويعينك كأمير، وتبني به رجال في الميدان، وهذا مما لا يختلف عليه العقلاء.

لكن تأتينا مسألة لماذا لا يكون هناك تفويض؟

وهذا يقودنا إلى مخاوف التفويض، ولا شك أن بعضها صحيحة، إلا أن بعض المخاوف قد تكون غير صحيحة، وعموما يجب أن نعالج المخاوف الصحيحة حتى نسمح بالتفويض أن يأخذ مجراه الطبيعي.

وقد يقول قائل أنا لا أفوض، لأنني كلما فوضت أحدا لا يقوم بالعمل، وقد يمر أسبوع ولا ينجز شيئا، أو أنني أفوض فلان ولكنه يأتيني بعشرات التبعات، أو يتصرف بتصرف مردوده سلبي جدا، وخاطئ، أو يقول حين أفوض فلان، لا يمكنني بعدها التعامل معه، فيقول لي: ليس من شأنك هذا عملي! إلى غير ذلك.

كذلك من المخاوف، أن يقول لك يا أخي أنا أخاف لو كلفت فلانا بالعمل فلن ينتبه لأمنياته، وآخر يقول فلان لا يحسن التعامل مع الإخوة.

وهنا نذكر قصة عمر ﵁ حين عزل صاحبه سعد بن أبي وقاص ﵁، عندما اشتكاه أهل الكوفة، وقالوا له : لا يحسن الصلاة! وهو من الذين شابهت صلاتهم صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاتهموه بما يمدح به، ومع هذا عزله عمر حفاظا عليه ..

وحين نتأمل كيف رد عمر حين سئل ﵁: لماذا لا يستلم أصحاب الرسول ﷺ العمل ، لماذا لا تستعملهم ؟

قال: والله لا أدنسهم في العمل.

ففي العمل تأتي المشاكل، ويتجرأ عليك بعضهم وهذا يعني أن هناك مخاوف يجب معالجتها وليس أننا نتوقف عن التفويض من أصله.

إذا لابد من معالجة..

فالأخ الذي تخشى أن يخطأ فدعه يخطأ وأنت بجانبه، تتصرف معه وقت الحاجة.

هذا حتى لا تقع الكارثة إن منعك عن العمل مانع أو انشغلت، ويضطر هو لأن يحل محلك ولم يسبق له أن فعل، ولم تره يخطأ أمامك ولم تتمكن من تعليمه وتقويمه.

وبهذا يكون الأفضل أن يخطأ ويتعلم على يدك، وقس على هذا موضوع الأمنيات ومواضيع أخرى كثيرة.

وقاعدة العلاج فيها كلها، هي قاعدة التأهيل قبل التفعيل، فمن أخطاء التفويض الشائعة أن يفوض الأخ قبل أن يؤهل، فلابد من تأهيله قبل أن يستلم العمل، والعلم قبل العمل، حتى لا تتفاجأ به يخرج عن رؤية ومسار العمل الذي تريده، ولا شك إذا علم الأخ وتفقه المسائل التي تتعلق بالعمل الذي تريده أن يمسكه، فلن تجد صعوبة في رؤية نتائج مقبولة.

فإن كانت خشيتك ألا يتقن مسائل الأمور الأمنية، فلقنه دورة في الأمن، ثم كلفه بالعمل.

وإلا فإن نتائج الخطأ تتراوح خطورتها بحسب مجال العمل ، فالمباشرة إن كان في المجال الأمني قد تصل إلى أصابة الأخ، وإن كان في مجال سياسة الجماعة، فقد يؤدي هذا إلى اتخاذ قرارت خاطئة. لهذا لابد من معالجة مخاوف التفويض بدل الاستغناء عنه.

وفي الواقع فإن أعتى مشكلة في المجال العسكري هي مشكلة الإدارة، ومن المشاكل العاتية فيها موضوع التفويض، لكن بالنسبة لنا نحن كمسلمين، فالحمد لله لدينا أحكام تعالج هذه المسألة، نفرق بها ما بين التفويض وما بين التوكيل وما بين الشراكة، وكل واحدة منها لها أحكامها.

وجدير بطلبة العلم أن يتابعوا هذه المسائل ويقرأوها من كتب الفقه، ويقرأوا أيضا عن السياسة الشرعية ويطرحوا الضوابط لها..

وهنا مقالة للقائد العسكري الفرنسي نابليون تؤكد أن هذه المشكلة عويصة عند الجميع، إذ يقول: "إذا أردت أن تقوم بعمل ما حسنا، فأدره بنفسك".

وطبعا هذا المعنى خطأ، جملة وتفصيلا، أي نعم إذا كان الأمر مهما يجب أن تشرف عليه بنفسك، لكن أنه يجب علي أن أقوم بكل عمل مهم بنفسي، فهذه لا يمكن، لأن العمل إجمالا كله مهم، ولا يمكنني أن أقوم به كله بنفسي، لهذا تأتي مسألة التفويض، ولابد أن نوضح أن التفويض بحد ذاته لا يُسقِط المسؤولية، فليس معنى أنني فوضت فلانا، ليقوم بعمل ما، أنه في حال قصّر في عمله أتبرأ منه، بل سأسأل عن تقصيره أيضا.

ذلك أنه تحت متابعتي، فإن كان فلان مراوغا ويكذب ويزور، فهذه عند الله سبحانه، أما أنا فأفوضه وأراقب عمله.

ولعمر ﷺ مقولة جميلة، حيث قال: أرأيتم إن أمّرت عليكم خياركم، ثم أمرتهم أن يعدلوا فيكم، لكنت أديت الذي علي؟ قالوا : نعم، قال : لا ، حتى أنظر ماذا يفعلون. ويقصد حتى ينظر هل طبقوا ما اتفق معهم عليه أم لا.

وقال ﷺ: لو أن بغلة سقطت في العراق لخشيت أن يحاسبني الله عليها. لماذا يا عمر لم تمهد لها الطريق.

بهذا الفهم كان يرى عمر ﷺ أنه لا تسقط المسؤولية عن الأمير نفسه، بل يجب عليه أن يتابع.

ولاشك أن في التفويض أخطاء، لكن الأصل ، أن تكون صفة العامل، قويا أمينا.

فإن وجدنا الأخ ثقة ومزكى، نسارع لتفويضه، فهذا يعتبر خطأ، لأن هناك شرط آخر يجب أن يتوفر وهو القوة. فهل لديه القدرة للقيام بهذا العمل؟

لأن مجرد الثقة أو التزكية هذه لا تكفي أن يسلم الأخ زمام العمل. بل لابد من قوة.

والقوة تعني أنه قادر على القيام بعمله الذي أوكل إليه، ولديه خبرة أو لديه علم في هذا الباب، فإن لم يكن لديه ذلك فعلاجها بسيط جدا وهو التأهيل.

ونلاحظ أننا نعود دائما لقاعدة: العلم قبل العمل، فعمر ﷺ كان يقول: تفقهوا قبل أن تسودوا، ويقول أحد العارفين: وبعد (أن تسودوا)، ويقصد أن تتفقهوا قبل أن تسودوا وأن تفقهوا بعد ما تستلموا العمل ذلك لأهمية مواصلة التفقه في عملك في دين الله عز وجل.

وتأهيل الأخ لنفسه ليس فقط حق على الجماعة بل وعليه أيضا، فعليه أن يعلم نفسه، ويقرأ، ويستنير، فإن استلمت إمارة عمل، فلتتعلم ماهي واجبات الأمير، افتح كتب الفقه ستجدها مفصلة فيها.

والأصل أيضا أن تعينك الجماعة في هذا الأمر، فتقيم لك الدورات، وتساعدك، لكن إن قصروا في ذلك أو أخطأوا، سواء كان هذا بعذر أو بغير عذر، يبقى الواجب عليك أنت بأن تطلب العلم والفقه.

فكل ما هو واجب عليك تعلمه، عليك به، ومن الأخطاء أن يسلم العمل لمن لا يملك القدرة عليه.

وفي بعض الأحيان نجد الأخ مبدع في عمل بذاته، تم تفويضه فكانت النتائج ممتازة جدا، فهل نقوم بتحويله مباشرة لعمل آخر لا يتلاءم وقدرات الأخ!؟ بالتأكيد هذا خطأ، لأننا نحمل الأخ فوق طاقته ونوسد الأمر لغير أهله.

فليس بالضرورة أن يكون أهلا في تلك الجزئية أن يكون أهلا في غيرها.

وإلا فقم بتعليمه ثم توظيفه.

ولعل أصعب الأمور هي الأمانة، ذلك أنها في جذور قلوب الرجال كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه التي تحتاج معالجة، أما القوة فأمرها سهل وهين، بالتعليم يأخذ الخبرة ويتقن عمله.

ودائما في باب الأخطاء الإدارية التي تقع في العمل الجهادي، أننا حين نجد أحد الإخوة قد أبدع في عمله، وكلما أعطيناه عملا قام به على أكمل وجه، فنحيل عليه الأعمال لإتقانه، فإذا بالأعمال تتراكم عليه من دون الناس.. بهذا نقع في نفس المشكلة التي نريد الخروج منها بسياسة التفويض، وهي تخفيف الأعباء على شخص العامل.

وهكذا تتراكم الأعمال وتتوقف لأن الجميع ينتظر فلان من الناس، وتتلاشى أهداف توزيع العمل، وكذا بناء الكفاءات في العمل الجهادي..

وسيكون من الأخطاء الاعتماد على شخص واحد بسبب قدرته في التكيف مع أي عمل نريده منه..

وفي نفس السياق، فإن الأخطاء التي تقع مع التفويض، عدم المراقبة لمن نفوض، إما لأن المفوِّض يتثاقل في أداء ذلك أو أن المفوَّض يرفض أن يساءل، بحجة أنها مسئوليته فلا يتدخل بعمله أحد، وهذا خطأ من الجهتين ، فأن تفوض فلانا لا يعني أن تتدخل في كل جزئية ما يسبب نفورا وانزعاجا لديه ويقلق عمله، فهذا يمكن أن يكون في حال الموكل لا المفوض. في حين عليك أن تطرح له الأمور العامة لسياسة الجماعة كي يلتزم بها. أي السياسة العامة للجماعة، والأهداف من هذا العمل، والباقي عليه.

أيضا من الأخطاء أن تفوض فلان ثم تعقد له طريق العمل بسحب المساعدين له والأسباب، وأنت بهذا لا تعينه على الخير، فإن فعلت ذلك مضطرا فعليك أن تعذره إن قصر في إنجاز عمله أو إتقانه.

ونذكر هنا قصة لأبي بكر الصديق ﷺ، عندما أراد أن يأخذ عمر من جيش أسامة بن زيد ﷺ ، وقام أبو بكر ﷺ وهو خليفة رسول الله ﷺ الأول! يستأذن أسامة رضي الله عنه في الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ ويقول له بكل حكمة وتواضع: إن رأيت أن تأذن لي في عمر فافعل، فأذن له فأخذه، بالرغم من أنه حق للأمير أن يذهب مباشرة فيأخذ من يريد من الجند، ولكن هذه تفسد قلوب الأمراء ، والقاعدة : ليس المعنى كل ما جاز حكمه جاز فعله، بل علينا مراعاة مسألة الإخوة وتعليمهم كيفية إدارة العمل، وسياسة الناس. فهذه مسائل واجبة.

من ينفذ العقوبة؟

يقول ابن الهرثمي -رحمه الله-: "فوّض إلى قوادك وولاة جندك أمور أصحابهم، ورضهم لهم من غير أن تأذن لأحد في بسط يده عليهم من أخذ مال أو عقوبة. إلا عقوبة أدب في صغائر الأمور.."

فعقوبة الأموال ليست حقا للأمراء، يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله- : "عندنا في الجماعة، ليس من حق أي أمير أن يعاقب أحدا بالمال. خصوصا في مسألة العوائل، فلو أن فلانا قصر في عمله لا يعني أنني أمنع أسرته من المعونة؟ فأين سيذهبون، سيتضررون! وقد يحتج قائل أنه هذه الطريق تعالج الأخ المقصر، وترده إلى الحق فننقذه بها. وهذا كلام جميل ولكن هناك اعتبار آخر، في مسائل الأولاد والنساء، وهي مسائل حساسة في هذا

الباب، فلا نجيز هذا، وقد يقول قائل: لا تعطه المال فهو يتصرف فيه تصرفا خاطأ، بل نشتري له أغراض وطلبات البيت ونسلمها للأسرة نفسها، والخلاصة أننا في التنظيم لا نجيز عقوبة المال فهي ليست في سياستنا."

ويضيف الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله- : "هي طبعا سياسة ، ونحن نرى أن هذا هو الاختيار الأصح، نسأل الله أن نكون وفقنا إلى الصواب، لأنه حصل في بعض المواقف أن عاقب بعض الإخوة بالمال، والعقوبة تكون في صغائر الأمور، وليس أن تأخذ فلان وتجلده، هذه عندنا تعتبر كبيرة، قال: لا تضربوا العرب فتذلوها".

ويقول ابن الهرثمي – رحمه الله – : "فأما غير ذلك فلا يلينّه غيرك، أو صاحب أحداثك بأمرك". وصاحب الأحداث أي الذي يتولى المشاكل، ويعالجها من المظالم، وهو دور اللجنة المختصة في هذا الباب، يسمى صاحب ويسمى أيضا أهل الشرطة، ويسمى قديما صاحب الأحداث.

خلاصة باب حسن سياسة الرئيس أصحابه

وإن كنا أطلنا الحديث في باب حسن سياسة الرئيس أصحابه، فلأنه غاية في الأهمية، وكل الكتب الموجودة الآن، ونقصد الكتب الغربية، التي يعتبر الكثير من الإخوة أنها ضبطت وساعدت وفيها فوائد. ويعتمدونها كمرجع، فحتى هذه الكتب وقبل أن تشرع في الحديث عن العمل وعن الأمور العسكرية تتحدث عن العامل وتستفيض مطولا في هذه المسألة ، لأن في الأخير هذا العامل هو الذي سيأتي بالعمل وهو الذي سيقوم به ويديره، ولهذا الاهتمام بالعامل هو من أهم الأمور، ونرى أن الهرثمي –رحمه الله- بدأ بمعالجة موضوع العامل، فبدأ بمسائل الداخل وهي القلوب ثم تكلم عن مسائل الهدي الظاهر، وتحدث في

البداية عن مسائل الأمانة التي هي القلوب ثم القوة وطرحها في اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم وهي القوة، ثم بدأ التفصيل في هذه المسائل كلها.

وقد تحدث أن العامل يسوس نفسه بتقوى الله عز وجل ولزوم طاعته واتباع هدي النبي ﷺ، وجعل الحديث عن كيف يسوس العمل، في سياسة الجند وإدارة العمل، وهي القوة، ونخلص من هذا الباب، باب سياسة الرئيس أصحابه، بأن سياسة الجند تكون بالمحبة لا بالرهبة وهذا الأصل (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (فبما رحمة من الله لنت لهم) (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك).

لأن المفروض أن يكون أمرنا قائم – بداية - على المحبة وعلى التراحم والتلاطف والعفو والصفح ... ، ومسألة اللين والشدة تكون في العمل على حسب الواقع، فإن اقتضى العمل الفلاني الشدة تكون الشدة حاضرة، وإن اقتضى الرحمة واللين فتكون هذه الصفات حاضرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: "ففي شريعته ﷺ من اللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظم مما في الإنجيل، وفيها من الشدة والجهاد وإقامة الحدود على الكفار والمنفقين أعظم مما في التوراة وهذا هو غاية الكمال".

ومن سياسة الأصحاب، أننا نسوسهم بأداء حقوقهم ، والتي نجدها في أدنى كتاب في الفقه وكذلك حقوق الرعية، ونحن ملتزمين بالشريعة لأنها مرجعنا وقد حدد أهل العلم حق المأمور على الأمير وحق الأمير على الجندي، فعلينا أن نبحث عنه ونلتزم به.

وتكون السياسة بأداء الحقوق المفروضة من الشارع الحكيم للجند، ومن ذلك مسألة مهمة جدا، وهي من المسائل العظيمة التي ذكرت في الآية، وهي (وأمرهم شورى بينهم) فالقرار يخص الجميع، ومصيره يمس الجميع لهذا فالشورى عندنا واجبة.

كل أمير صغر أم كبر يجب عليه أن يشاور من لديه، فليس معقولا أن يتخذ القرار عن جمع من الناس شخص واحد دون مشاورتهم.

وحتى إن كان جمهور العلماء يرى أنها سنة فنحن ندين إلى الله عز وجل بأنها واجبة، وكل أمير، سواء كان في موقع ، أو كان في ولاية، أو كان في لجنة، عليه أن يشاور إخوانه، والشورى هي من أعظم الأمور التي يساس بها الرعية، ويدار أيضا بها العمل، ليس فقط من أجل سياسة الإخوان فقط، بالرغم من أن النص واضح قال تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) (وشاورهم بالأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) ثم الآية عندما نزلت، نزلت في معرض مخاطبة النبي ﷺ ، (فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك. فاعفوا عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله).

ونعود لسياسة التفويض في هذا المقام، وننقل كلاما للمؤلف أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري المتوفى سنة 821 للهجرة –رحمه الله– من كتاب إسمه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا." وهو كلام جميل عن موضوع التفويض في القرن التاسع. قال : "فوض إلى أمراء أجنادك وقواد خيلك أمور أصحابهم، والأخذ على قافية أيديهم رياضة منك لهم على السمع والطاعة لأمرائهم، والاتباع لأمرهم ، والوقوف عند نهينهم، ونقدّم إلى أمراء الأجناد في النوائب التي ألزمتهم إياها، والأعمال التي استنجدتهم لها، والأسلحة والكراع التي كتبتها عليهم".

وهو يقصد أن تضع الأمراء وتجعل الرعية تسمع لهم وتطيعهم، فتعلمهم السمع والطاعة لهم بالمعروف، ثم قال "ورضهم"، ويعني روضهم على هذه المسائل.

فلا تقوم بتوظيف أمير على مجموعة ثم تتواصل المجموعة معك أنت مباشرة، فأين فائدة الأمير الذي استعملت؟

إن فعلت ، فقد ألغيت الأمير الذي وضعته، وهذه من المشاكل التي نقع فيها، وطبعا لها أسباب، ومن الأسباب ما يرجع إلى أمير المجموعة نفسه لأنه لا يتابعهم، أو أنه مقصر في حقوقهم الشرعية ، أو أنه لا يعلمهم ولا يؤهلهم ولا يتحسس هومهم، فالمسألة لا تقتصر على متابعة مصاريفهم وحسب، بقدر ما هي زيارة لهم وتلمس أوضاعهم فهذا حق من حقوقهم، والحق الثاني للأمير العام أو الأمير الذي فوق هذا الأمير في حال أنه لم يؤدي الأخير الواجب المناط به مع جنده من رعاية ومتابعة ، فيقوم به من هو فوقه، كما يجب عليه أن يرد على رسائلهم وأن يقابلهم ويتابع أمورهم - في حال قصر الأمير المباشر-.

يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله - : "وفي الغالب شاهدنا بعض الأمراء لا تصل شكاوى من جندهم أبدا، لأن الأمير يعيش معهم، وكان من أفضل هؤلاء أخونا ميسرة رحمه الله، لقد كان من أفضل الإخوة في التفويض، أخونا ميسرة العدني نسأل الله أن يتقبله، ولا شك أن هناك أخوة كثيرين يمثلون قدوة في هذا الباب، ولكنني تكلمت عن أفضل الإخوة الذين قتلوا رحمهم الله".

يقول ابن الهرثمي – رحمه الله – :"واحذر اعتلال أحد من قوادك عليك بما يحول بينك وبين تأديب جندك". ويعني خروجه عليك وعدم تأديته السمع والطاعة، وبمعنى أن التفويض لا يسقط المسؤولية في متابعتهم ومحاسبتهم.

وأضاف ابن الهرثمي – رحمه الله: "... وتقويمهم لطاعتك، وقمعهم عن الإخلال بمراكزهم لشيء مما وكلوا به من أعمالهم، فإن ذلك مفسدة للجند، مفتأة للقواد عن الجد والإيثار للمناصحة، والتقدم في الأحكام".

يعني رغم أنه في الأصل أمير وهو موكل بهذه المسئولية لكن ليس له الحق أن يمنعك من جندك، أو يماطل في المسألة، أو يشجع على "الشللية"[10] لأن هذه لا تبني جماعة وإنما تبني أفراد و "شللية" وهذه من الأمور التي ينتبه لها العامل.

وقال ابن الهرثمي – رحمه الله – :"واعلم أن في استخفافهم بقوادهم وتضييعهم أمر رؤسائهم دخولا للضياع على أعمالك، واستخفافا بأمرك الذي يأتمرون به ورأيك الذي ترتئي".

وهو يقول، احذر أن يتجرأ الجند على أميرهم، فإن شاهدنا أحد الأمراء غير قادر على سياسة أصحابه، فإن التجرأ عليه هو تجرأ على الكيان ككل. ومن الحكمة أن نبعد هذا الأخ، ونأتي بأخ يستطيع التعامل مع الحدث، لأن التجرأ على هذا الأمير تجرأ على الكل، بسبب والله قصوره في هذا الأمر أو ذاك. أو بسبب تعديه في بعض الأحيان، فتعالج هذه المسائل مباشرة دون تأخير.

ويقول ابن الهرثمي – رحمه الله – : "وأوعز إلى القواد أن لا يقدم أحد منهم على عقوبة أحد من أصحابه، إلا عقوبة تأديب في تقويم ميل، وتثقيف أود، فأما عقوبة تبلغ تلف

---

[10] يقصد تجمعات صغيرة من الأفراد

المهجة وإقامة حد في قطع، أو إفراط في ضرب، أو أخذ مال، أو عقوبة في شعر فلا يلين ذلك من جندك أحد غيرك، أو صاحب شرطتك بأمرك وعن رأيك وإذنك".

فمع أنه أمير الشرطة لكن في المسائل التي يكون فيها قطع وفيها قتل ورغم أنه موكل بهذه المسألة إلا أنه لابد له أن يرجع لأميره فيها، وإلا تختل المسائل وتدخل فيها النفوس، حتى لو كان حقا، لأن عامة الناس لن يقبلوا هذا الأمر.

فأمر طرد فلان أو عقوبة فلان لا توكل لفلان القرين له، لأن الناس تنظر له كقرين وهذه مشكلة، بعكس الأمير المباشر أو العام، فهم ينظرون إليه كأب مع أولاده، لا يظلمهم، ولهذا ينبه ابن الهرثمي على هذه المسألة لأن الرجل قد يخطأ فتكون تبعاته كبيرة، وحتى لو أصاب فإن الكثيرين لا يقبلون هذا الصواب.

وهذه نفوس بشرية، فلو كنت أنت وأخوك في الميدان، ونقصد أخوك من أبيك وأمك، وأقام عليك العقوبة فلن تقبلها منه وإن كانت عادلة، لكن أن تأتي هذه العقوبة من الأب فعلى الجميع الإذعان.

وهذه من المسائل التي يساس بها الجند، لا يقوم بالعقوبة أي أحد، سوى في أمور محدودة كعقوبة التأديب، وهي لا تصل لعقوبة القطع والجلد ومثيلاتها.

ويقول ابن الهرثمي – رحمه الله– :"ومتى لم تذلل الجند لقوادهم ، وتَضرعهم لأمرائهم، تُوجب لهم عليك الحجة بتضييع – إن كان منهم – لأمرك.".

وقد يقول الأمير أنا أتعامل مع الجند، وهم لا يتعاملون معي، وهو أمير قائم بواجبه، فلا تعن جنوده عليه. وهذه حجة منه، عليك أن تعالج الأمر فتذلل الجند لأمرائهم فلا يحتجون بهذه عليك كأمير.

ويضيف ابن الهرثمي – رحمه الله – :"أو خلل – إن تهاونوا به– من عملك، أو عجز – إن فرط منهم – في شيء مما وكلتهم به، أو أسندته إليهم ، ولا تجد إلا الإقدام عليهم باللوم وعض العقوبة عليهم مجازا تصل به إلى تعنيفهم، بتفريطك في تذليل أصحابهم لهم، وإفسادك إياهم عليك وعليهم. فانظر في ذلك نظرا محكما، وتقدم فيه برفقك تقدما بليغا، وإياك أن يدخل حزمك وهن، أو يشوب عزمك إيثار، أو يخلط رأيك ضياع، والله يستودع أمير المؤمنين نفسك ودينك".

فإن أنت كأمير لم تعن الأمراء على جندهم ولا روضتهم لهم ولا قلت لهم اسمعوا وأطيعوا لأميركم، ولا ربطتهم بمسائل واضحة، كأن يصدر أمر العمل عبر أمرائهم ، إن أنت لم توفي بهذا، فليس لك حجة على الأمراء ولا تستطيع حتى مجرد اللوم أن تلومهم، وهذا في حال قام الأخ الأمير بعمله فإن لم يقم به فأنت مضطر إلى متابعة الجميع بنفسك.

الفصل الثالث: في فضائل الرئيس وأصحابه

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى– في كتابه الفروسية: "فصل (أنواع الفروسية الأربع)، والفروسية أربعة أنواع: أحدها : ركوب الخيل والكرّ والفرّ بها. الثاني: الرمي بالقوس. الثالث: المطاعنة بالرّماح. الرابع: المداورة بالسيوف. فمن استكملها استكمل الفروسية.

ولم تجتمع هذه الأربعة على الكمال إلا لغزاة الإسلام وفوارس الدين، وهم الصحابة ﷺ، وانضاف إلى فروسيتهم الخيليّة، فروسية الإيمان واليقين، والتنافس في الشهادة، وبذل نفوسهم في محبة الله ومرضاته، فلم يقم لهم أمة من الأمم البتة، ولا حاربوا أمة (قط)، إلا وقهروها، وأذلوها، وأخذوا بنواصيها، فلما ضعفت هذه الأسباب فيمن بعدهم، لتفرقها فيهم، وعدم اجتماعها، دخل عليهم من الوهن والضعف بحسب ما عدموه من هذه الأسباب، والله المستعان.".

ويقصد ابن القيم أن الإعداد الإيماني أو الفروسية الإيمانية، هذه ليست موجودة إلا عند المؤمنين، أو المسلمين، ومن جاءت إليه الفروسية كان من أعظم الناس، والدليل النموذج الذي رأيناه من الصحابة والفتوحات التي رأيناها، والتي لم تتوفر إلا لأمة الإسلام فقط، ونستطيع نقول أيضا أن الهرثمي، بدأ بالفروسية التي سماها ابن القيم الفروسية الإيمانية، وهي الأساس، ثم الفروسية الخيلية وهي الميدان، تأتي تبعا.

وقد ذكر هنا فصلين: فصل في فضائل الرئيس وأصحابه، ثم فصل في فضائل الرئيس في الحرب، ويقصد بفضائل الرئيس في الحرب وفي غير الحرب، أو الأمير في الحرب وفي غير الحرب، سواء قبلها أو بعدها أو أثناءها. وفي فصل فضائل الرئيس في الحرب، المقصود بها القتال نفسه.

وقال ابن الهرثمي – رحمه الله– : قالوا: "أفضل الرؤساء في الحرب، أيمنهم نقيبة وأكملهم عقلا، وأطولهم تجربة، وأبعدهم صوتا، وأصبرهم بتدبير الحرب ومواضعها..." إلخ.

و"النقيبة " يعني السيئة أو الطبيعة، و"أيمنهم" أي أحمدهم، وأفضلهم نفسية. أي الرجل السهل السمح العفو، الرجل الذي حين تتعامل معه لا تشعر أنك تتعامل معه بمحاصصة

أو مشاددة، ولا تعامله بتلك المحاسبة، سهل في معاملته، رجل صاحب إعذار وتقبل. وهذا أيمنهم نقيبة، ثم قال: "وأكملهم عقلا"، وقد جاء في صيد الخاطر "فصل: كامل العقل من يتلمح العواقب". يعني يلمح أو يرى، ما هي عاقبة الأمر.

فالمجنون قد يأخذ حجرا ويرمي به أحدا.. في الأخير هذا فعل مجنون. لأنه لا ينظر إلى أين سيؤول الأمر..

لكن العاقل، يتلمح إلى أين تصل العواقب، وبهذا فإن كل من لا يتلمح العواقب ولا يستعد لما يجوز وقوعه، فليس بكامل العقل. هذا بحسب كلام ابن الجوزي رحمه الله.

وفي ساحة عملنا، أي عملية عسكرية، يقوم بها الأخ لايدري عنها شيئا عن مآلاتها، فهو ليس بكامل العقل، إنما كامل العقل الذي ينظر، إلى أين سيؤول الأمر.

ولو لاحظنا تعريف كامل العقل، فهو تعريف السياسة والإدارة، فالسياسة هي ترويض الدواب، وهو لفظ نقله أهل اللغة للبشر، فيقال لهم (إياله)، وإياله بمعنى ما هو الأمر الذي يتخذوه، إلى أين يؤول؟ فإن كان رجوعه أو إياله يعود إلى خير أمضيته، وإن كان العكس تركته طبعا. إذن هذه بمثابة تعريف كامل العقل.

وكذلك الإدارة التي تعني التدبير، فالتدبير هو أن ينظر الإنسان، أين يصل عمله، إلى أين يصل في آخره، ولهذا فمن يعمل في السياسة، أو من يعمل في الإدارة يجب عليه أن يكون كامل العقل فلا يقدم على عمل دون أن يتأمل ويتدبر إلى أين سيصل. وليس أن يقوم العمل لمجرد أن يقوم به.

قال ابن الهرثمي – رحمه الله- "قالوا أفضل الرؤساء في الحرب، أيمنهم نقيبة وأكملهم عقلا، وأطولهم تجربة، وأبعدهم صوتا، وأصبرهم بتدبير الحرب ومواضعها ..".

"وأبعدهم صوتا" ، أي الذي لديه نفس في الصوت، لأنه في إدارة المعركة يمتدح ولا تنسى أنه يتكلم مع رئيس الحرب، يقول أبو بكر ﷺ: لصوت القعقاع في الجيش أحب إلي من ألف فارس.

والعدو بطبيعته إذا سمع في المعركة المسؤول أو الأمير صوته خافت ضعيف، قد يطمع فيه، ولو رأينا النبي ﷺ في غزوة حنين، حين وقع ما وقع، فدعا العباس، فنادى العباس (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) .

يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله – : " لقد جربنا في كثير من الحوادث، حين يتوقف الهاتف، فتضطر بعض الأحيان أن تتعامل بالصوت، فيجب أن يكون الأخ، صاحب صوت أو أن يكون معه أخ يمتلك هذه الصفة، وأذكر هنا قصة حصلت لي شخصيا في الحراسة، خرجنا في الليل نتفقد الإخوة، هل هم قائمين بالحراسة أم لا، فكان عندنا أخ ماليزي فقال لي: "دريش"، ودريش بالأفغاني يعني "قف"، وحين قال لي دريش وقف شعر راسي والله! وضيعت كلمة السر، – من شدة جهورية صوته- فلو كان الذي أمامه عدو! كيف سيكون ردة فعله؟ والشاهد أن الصوت إذا كان فيه نوع من اللين أو الضعف، قد يطمع العدو".

"وأصبرهم بتدبير الحرب ومواضعها" وأبصرهم يعني أعلمهم، ومن البصر من العلم من الحجة، يقول النبي ﷺ : "إني لؤأمر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه".

وذلك لأنه أيقظهم عينا وأبصرهم بالحرب. إذن يأخذ للعمل الأعلم وليس الأفضل، هنا مقام القوة "الأعلم" وليس "الأفضل".

وقال ابن الهرثمي – رحمه الله –: "وأفضلهم يعني في مواضع الفرص والحيل والمكائد". وعن الفرص يقول عمر ﷺ : "إن هذا الأمر لا يصلح له إلا رجل المكيد الذي يعرف الفرصة والكف".

يعني إذا كان الأمير لا يعرف متى يقدم ومتى يحجب، فهذا عيب عظيم في حقه، بل إنه يفوت الفرص، يقول الإمام علي ﷺ : " اغتنموا الفرص".

فهي تمر مر السحاب تأتي ثم تمضي سريعا، وكم من الفرص لو أن الأخ استغلها واستفاد منها لكان الخير عظيما، ولهذا من صفات الأخ المهمة، معرفته بمواضع الفرص من غيرها.

ثم من صفات الأمير أن يكون "أحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة" وهنا التعبئة التجهيز ورص الصفوف. وهذه تمثل بابا من أهم الأبواب.

قال: "وتسييرهم أوان التسيير، وإنزالهم أوان النزول". أي أنه من صفات القوة في هذا الأمير، أن يعرف متى ينزل جنده، ومتى يسير بهم ، وإدخال الأمن عليهم والخوف، هذه من أعظم الصفات، سواء كان ذلك في الحرب أو في غيره، وهذه من أعظم الصفات، وإذا فقد الإنسان هذه الصفة، يعتبر فاقدا للعمل، ولا يصلح أن يكون مسئولا نهائيا، لا على الجيش ولا على سرية ولا حتى على مجموعة.

"وإدخال الأمن عليهم والخوف على عدوهم" بمعني حين يكون الناس عموما وأصحابك في خوف، دورك أنت أن تشعرهم بالأمن وتشجعهم وتحرضهم وتدخل الخوف على العدو، وهذه لها أفكار كثيرة.

والأصل عندما يخاف الإخوة في الميدان يجب عليك أن تطمئنهم كأمير، كأن تذكرهم بمعية الله عز وجل، وتذكرهم بقصص سابقة قد مرت، أعظم منها، وتذكرهم بأن العدو اضطر لهذا لأجل ذاك.

يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله – "وهذا يقودنا للحديث عن مشكلة، وهي حقيقة، أعتقد لا توجد جماعة في الجماعات مثل الجماعات أو التيارات الجهادية تذبح نفسها وتسلخ نفسها سلخ وهذا غلط، فتجد الأمير بدل أن يشجع إخوانه يخذلهم دون أن يشعر ، يقول والله ما عندنا ؟ ففي هذا الموطن لا يصح أن تقول ما عندنا! هذا الموطن موطن ثبات، موطن رفع معنويات إخوانك، موطن (إن الله معنا) فتجد بعضهم يريد أن يعالج المسألة ولكنه يسيء، فيدخل الرعب على إخوانه وهذا مفهوم أن تزرع الشجاعة في إخوانك وتزيل عنهم الخوف، والشجاعة شجاعة القلب، وفي هزيمة القلب، وإن حمل سلاح الدنيا وقلبه خائف، فهذا لا ينفعه، وهذه من أعظم الصفات أن يثبت الأخ إخوانه ويدخل عليهم الطمأنينة ويدخل على عدوهم الخوف".

قال ابن الهرثمي – رحمه الله –: "مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه".. أي أن إدخال الأمن على الإخوان، يكون مع طلب السلامة فيسعى في تجهيز العمل وفي تجهيز العبوات وفي تجهيز المجموعات ، يسعى في الحراسة ، يتحرك بين إخوانه بالعمل، لا أن يجلس! ثم كل ما تسأله كيف الأمور يقول: أبشر الأمور طيبة، بل هذه تعتبر خيانة وإن أردت بها

الخير، فحين تقول "أبشر" وأنت تسعى للأمر، فأنت قد سعيت ورفعت الملامة، أما أن تجلس وتقول أبشر، فهي الخيانة.

وأضاف: "وأن يكون حسن السيرة عفيفا صارما، حذرا متيقظا شجاعا سخيا" وهذه صفات الأمير الذي يصلح لإدارة الجيش.

و (حسن السيرة) معروف، و(عفيفا) هو الذي يعف عن سؤال الناس ويعف عن الوقوع في الحرام، هذا هو العفيف بشكل عام، فعفيف في نظره، عفيف في سمعه، عفيف في تعاملاته مع إخوانه، عفيف في كل هذه المسائل، فأنت في مكان يجب عليك أن تتعفف، والعفة أصل لكل أحد، ولكنك في هذا المقام تزيد منها، فتصبح العفة في خطابك فلا يخرج الكلام منك إلا أطيبه وفي السماع، لا تسمع إلا أحسنه، فإن اغتاب فلان فلانا أمامك، أسكته، إن سمعت كلاما بذيئا تسكت هذا اللسان البذيء، أن تكون عفيفا في بصرك وفي كل شيء، بل تصل هذه العفة إلى كيف تقتل عدوك بعفة، كما في الأثر، (أعف الناس قتلة المسلمون)، حتى قتلهم بعفة، لا تأخذه فتقتله ثم تقطعه إربا، فهذه ليست مُحَمَّدة بل هذه رذيلة، وتدخل العفة حتى في القتل وكذا الإحسان.

وقالوا ليس من المروءة، أن يسلمك الأخ سيارة مثلا، فتبيعها له، لأخ آخر أو للتنظيم وهكذا، لتجني الأرباح والمصلحة منها لنفسك، فهذه ليست من المروءة أن تكسب على أخيك.

وكذلك في العمل، أن تبيع سيارة للتنظيم ثم تربح منها وتعيد للتنظيم قيمتها الأولى، فهذه ليست من الأمانة، ولا من العفة.

وقد يطرأ على المرء شبهة، فيقول، أنا أقاتل الكفار، فإن جاءني رجل فاجر، يساعدني بشيء، فأقبل مساعدته لقتال رجل فاجر آخر، بدون شروط. فهذه ليست من العفة وأمرها لا يستقيم.

وحين يقول (صارما) فمعنى الصارم هو الرجل الجلد الشجاع، وليس المقصود بالصارم صاحب الصوت العالي، أو صاحب الفظاظة أو صاحب الشدة، إنما المقصود بالصارم في هذا المقام الشجاع صاحب الإقدام، لا يتردد وقت النزال أو وقت المعركة، وأيضا لا يتردد في أي وقت في اتخاذ القرارات، فإن كان أمامه إنسان مثبط، يعمل على التثبيط في كل مكان، فهذا لا يتردد في تسريحه، وإبعاده، ذلك أن تعليق المسائل ليس من الأمور المحمودة، بل من الأمور السيئة جدا في الميدان.

وقال (حذرا) وحين يتكلم على القتال يبدأ بالحذر لأهميته. وهناك باب كامل يتناول موضوع الحذر. قال: (حذرا متيقظا شجاعا) والشجاعة كما أسلفنا هي شجاعة القلب، ليست بالجسم، فحين يكون الأمير يحمل الخوف في قلبه ، لن يستطيع أن يقدم شيئا، ولكن يمكنه أن يتشجع بذكر الله عز وجل، وبقراءة السيرة، وبمعرفة من هو عدونا، وأن عدونا أضعف مما نتصور، قال تعالى: (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) والشجاعة تؤتى، فعلي أن أنمي هذا القلب، أنا أربيه، أنا أتعهده، وهذه من الصفات العظيمة، ولا يمكن أن يكون الأمير يفتقد للشجاعة، سواء كان مسئول المعركة أو مسئول الجيش أو مسئول الجند، يجب أن يكون شجاعا، ونذكر هنا مقولة شهيرة للقائد الفرنسي نابليون، يقول:"إن جيشا من الأرانب، عليهم قائد من الأسود خير من جيش من الأسود وعليهم أرنب! ".

وهذه حقيقة، ففي الأخير من الذي بيده الأمر والنهي؟ من يقود الناس ؟ هذا الشجاع، فإذا كان الأمير شجاعا، أقدم وشجع الناس على هذا الأمر، وإذا كان جبانا، ولو حتى كان يتبعه أسود فسيصبحون جبناء، ولهذا يجب التنبه لهذه المسألة.

ثم ما الفرق ما بين الشجاعة وما بين التهور؟

الفرق عظيم، فالشجاع يقدم وقت الإقدام ويحجم وقت الإحجام، ويسع الأمير وهو فرد، ما لا يسعه وهو على الناس كلهم ، فقد يسع الفرد بعض الأحيان أنه يقدم، في موطن ليس فيه الإقدام، ولكن عندما يكون أميرا ليس المقصود أن تكون شجاعته بالإقدام دائما، إنما الإقدام وقت الإقدام، والإحجام في وقت الإحجام هذه أيضا تعد شجاعة.

وقال: (سخيا) والسخي هو الجواد، الكريم، وهناك فرق ما بين الجواد وما بين المسرف، فلا يعني السخاء أن تعطي أموال العمل للناس بحجة أن يقال عنه سخي!

وإنما المقصود أنك تجد الأخ الأمير يعيطيك وهو يغالب قلبه، تراها في قسمات وجهه، يعطيك من دون رضا، وهذا أمر ثقيل عليك، لهذا السخاء أن يعطيك بقلب راضي، ووجه مشرق.

قال الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله- : "أذكر قصة، تختصر المشهد، كنا في وقار فجاءت امرأة عجوز كبيرة في السن، تبحث عن أبو علي الحضرمي رحمه الله ، فقام أحد الإخوة وأعطاها 5 ألاف، فقالت: يا ابني أنا ما أريد الخمسة ألاف، فأبو علي يعطيني عادة 500 ، هذا حقي فقط، وأنا أريد من يد أبو علي، وليس من يدك، والله لو تعطيني الدنيا كلها! وهذا لأن أبو علي يعطيها وابتسامته غالبة على وجهه، يعطيها وهو يقبل رأسها،

يعطيها وهو يشعر كأنه هو الذي يأخذ منها. فهذا السخاء الذي نحتاجه، يراك الأخ تعطيه، وأنت فعلا باذل، يستعير منك سيارة، أو ماعون، ما يشعر أنك لا تعطيه السيارة حتى تضايقه! وهكذا يجب أن تكون السماحة، وإذا كانت السماحة فيها بركة في البيع والشراء، (بارك الله لمن باع سمحا واشترى سمحا) فما بالك في مسائل الدماء، وفي هذه المسائل العظيمة في ذروة سنام هذا الدين".

ومن الصفات التي يجب أن تكون في العامل خلال القتال نفسه، وهذه نسميها القوة في الحرب، قال: "المعرفة عند اللقاء، بهذه الخمسة والعشرين حرفا" (يعني خمس وعشرين من الخصال الموجودة أو المصطلحات الموجودة كما قال المحقق).

هذه الصفات هي صفات القوة في الحرب نفسها، التي يجب أن يتحلى بها العامل، قال: أولا، التحضيض والتشجيع والإمعان والتواقف.

والتحضيض هو التحريض، حضضهم على القتال يعني حرضهم على القتال، ونلاحظ أن أول صفة وضعها هي التحريض، فحين تدعو امرئ للقتال تبدأ معه بالتحريض، فتحرضه، وتشجعه، وتذكره بأن الجهاد عليه واجب، وعكس التحريض هو التخذيل والذي يعتبر أشد صفة من صفات الذم في الجيش ، ومن خذل يطرد، أما أهم الصفات فالتحريض، ولهذا بدأ بها، وفي الآية يقول الله عزوجل: (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال).

وعن مسألة الطرح، هل الأفضل أن يطرح الأمر المجرد أم بطريقة التحريض ؟ قالوا الأفضل أن يعطى الأمر بطريقة التحريض، مثال على ذلك، حين تلقي أمرا في عملية، لفلان، فلا تقول له مجرد: فلان عليك بالنقطة الفلانية بل لابد أن تجعله يؤمن بهذا الأمر وأهميته وتحرضه وتفهمه دوره، فإذا آمن بأن النقطة هذه التي يذهب إليها أهم جزء في جزئيات

عمله، سيكون الأداء مبهرا، لكن إلقاء الأمر مجردا، يمثل مرتبة أقل تأثيرا من الأمر بطريقة التحريض.

وهذه الصفة الأولى التي يجب أن يتحلى بها الأخ في الميدان.

وفي الميدان نصادف العديد من الشكاوى، من قبيل الأخ لا يسمع!

وفي الواقع السبب أنك لم تتمكن من إيصال الرسالة إليه من الأساس.

لأنك لم توظف أسلوب تحريض مع إخوانك في العمل.

قال (والتشجيع) فقد تحرض الأخ ويتحرك ولكنه خائف، فتأتي الصفة الثانية المهمة، وهي صفة التشجيع، بمعنى أن تشجع قلبه وتذكره بوعد الله عز وجل، وتعلمه تجاربنا مع هذا العدو، وعكس التشجيع، الإرجاف، حين تسمع مقولات من قبيل (هؤلاء أقوى منا، لم نقدر حساباتنا جيدا معهم، والطريقة هذه لا تنفع) ولذا إذا ابتلي أمير بجندي في الميدان يسعى بالإرجاف أو التحذيل وجب عليه أن يطرده.

"والإمعان" هو الصفة الثالثة، نقول: أمعن الفارس إذا تباعد في عدوه، لكن الإمعان، بشكل عام هو التأمل والمبالغة في الاستقصاء، يعني إذا كنت مسئولا عن الجيش ، يجب أن تتعامل مع الأحداث، أن تدرس عدوك، أن تدخل فيه، أضع نفسي مكان عدوي كيف يفكر فأفكر، وأنظر لماذا وضع هذه التشكيلة ؟ هو ينوي الهجوم بالطريقة الفلانية، أنظر إلى تحركاته العسكرية، إلى تموضعه، إلى القوات التي يرسلها، إذا أرسل مدفعية، فهو يهدف إلى شيء معين، إذا أرسل قوات خاصة فقط، وضح بذلك أن هدفه المداهمة وعلى

هذا المنوال يجب أن يقرأ الأخ الحدث، يتمعن في الأمر، ويستقصي فيه، وهذه من الصفات اللازمة لأمير الحرب، وهذه خاصة بالمعركة. أين تركز الاهتمام بتشكيلة الجيش، وحركة الجند، وعددهم، فتعرف مباشرة ما الذي يريده العدو.

والصفة الرابعة، هي صفة "التواقف"، وهو تحديد مواقف القتال، فيختار الأمير موقف للقتال، بمعنى الوقوف للقتال، والاستعداد للقتال، وهي صفة مهمة أن يعرف الأمير أين يقف وكيف يقف وكيف يتعامل مع تموضوع جنود العدو، وكيف يوزع أصحابه.

ثم لدينا "التواقع"، ويأتي بعد القتال. ونلاحظ أن الكاتب احترم الترتيب في الصفات فقال التحضيض، يعني تحرض الجند، ثم تشجعهم، ثم تقرأ الحدث، ثم تزحف، أو تتحرك إلى العدو، وكذلك مسألة التواقف، وبهذا على الأمير أن يدرك كيف يتعامل مع الجند أنفسهم، وكيف يتعامل مع الواقع نفسه.

ومن الصفات التي يجب أن تتوفر في أمير الجيش في مسألة التزاحف، وهي أن يزحف إلى عدوه. فبعد التوافق يأتي الزحف إلى العدو، قال: "التزاحف هو السير إلى العدو وكأنهم يزحفون إليه زحفا بسبب ثقلهم وكثرتهم" طبعا عندما يزحف عدو يظهر مع اقترابه صوت وغبار ولهذا يعتبر هذا الموطن من مواطن الشدة، يكون فيه الغبار كبيرا جدا، وتسمع الصوت، فيخلق هيبة في النفس، وكيف تتعامل مع هذا الزحف، ومع نفسيات إخوانك، وكيف تقيّم طريقة الزحف إلى العدو، وطريقة تقدمك، كل هذا يقع على عاتق الأمير وعليه أن يدركه جيدا.

فحين يزحف إليك عدوك، وهو ثقيل، عليك أن تبحث أفضل الأوقات وأنسبها لضرب العدو.. طبعا في عصرنا هذا تغيرت تكتيكات الحرب، وحين يتقدم العدو تثقله معداته

الثقيلة والجامدة، فتضعف قدرته على القتال أثناء التقدم، وهنا فرصة للأمير ليقرر كيف يتعامل مع هذا الزحف وكيف يتقدم وكيف يقاتل ومتى.

ثم قال "والازدلاف" أي الاقتراب من الأقران، أو الاجتماع للقتال، فعندما تجتمع بعدوك كيف ستقاتل..؟ هذه من المسائل التي يجب أن تكون حاضرة سواء اجتمعت بقصد وأنت متحرك وقد ترتبت أمورك للقائه أو اجتمعت به بشكل مفاجأة، يجب على الأمير أن يعرف كيف يتعامل مع الحدث.

ثم قال "والمطاولة"، بمعنى تطويل أمد الشيء، فأنت في الحرب، تطول أمد القتال، لحاجة عندك، مثل أنك تنتظر أن يأتيك المدد، أو ترغب فقط أن تطول، وبعض الأحيان تريد أن تطول أمد الحرب بشكل عام، وليس فقط المعركة، ويجب أن تكون هذه صفة من صفات القائد خلال المعركة، أن يكون صاحب نفس، لا يسعى لإنهاء المعركة وكفى، لا يبحث الاستعجال في إنهاء المعركة لأنه يؤدي للقضاء على جيشك، فحسم المعركة بسرعة له ثمن، وقد تتصرف خلال ذلك تصرفا خاطئا فيقتل أبرياء، ولهذا فإن اتصاف الأمير بصفة الصبر أمر مهم جدا، وفي الحديث، (واعلم بأن النصر مع الصبر).

قال "والمشاولة" أي أن يرفع الجندي سلاحه في وجه عدوه، والمشاولة هي القتال بالرماح، بمعنى على الأمير أن يعرف كيف يقاتل بالرماح، وفي عصرنا اليوم نقول القتال بالسبكي وهو الخنجر الذي في مؤخرة البندقية، بطعنة قصيرة أو طعنة طويلة، يستعمل في الاشتباك للقتل ، ويستعمل حين تنفذ الذخيرة ووقع التحام. وقد يقع التحام والذخيرة متوفرة ولكن لا يمكن استعمالها، لأن إخوة لك سيصابون، فحين يختلط الأمر بينك وبين العدو، يغلق السلاح ويؤمن ويقاتل بهذه الخناجر.

وهذه حالة قد تحدث يجب على الأمير الدراية بفنون القتال بها، حتى ينقل هذا الفن في القتال لإخوانه في الميدان.

"والمبارزة" بمعنى البروز، أو الظهور، أو بمعنى القتال في مكان مفتوح، اثنان يتواجهان ثم يتقاتلان، أو جيشان يتقاتلان. وحين يكون القتال في مكان بارز وواضح، يكون القتال مختلفا عنه في المناطق الجبلية عنه في مناطق الغابات وغيرها، فيجب، أن يكون الأمير أو مسئول الجيش على معرفة بالقتال في المكان المكشوف لأنه أخطر الأماكن، فالعدو قادر على استهدافك، بالطيران بالدبابات، بالجنود، هي منطقة مكشوفة بالأصل.

والتعامل في طرق إخفاء الجنود والقتال بخسائر أقل، والانتصار كلها مسائل وجب على الأمير معرفتها.

"والمساورة" بمعنى الهجوم، والالتحام، عند الالتحام واختلاط جيشك بالجيش الثاني، عليك أن تدرك كيف تدار المعركة، والإدارة تكون منذ انطلاق المعركة وأثناءها وفي نهايتها.

"والكرة" يعني يجب على الأمير أن يفهم كيف يكر على العدو، والمقصود بالكرة هنا هو الهجوم، وإن كانت الكرة المقصود بها كما كان قتال العرب كر وفر إلا أن الأولى هي الهجوم، ثم الفرار ثم يكرون مرة ثانية، تسمى كرة أخرى. قال تعالى: (ثم ارجع البصر كرتين). يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله – "عندنا في صنعاء يقولون كرة ثانية أو كرة مرة ثانية ، هذه كرة ثانية".

"والانحياف" الانحياف لم يفسرها المحقق، لكن من خلال سياق الكلام، تكلم عن الكرة، فلابد أن يكون عكسها الفرة، فيكون ربما المقصود من الانحياف، الانحياز، (لخطأ

باستبدال حرف (ز) بحرف (ف) وقد يكون فعلا اسمه الانحياف، وفي اللغة الحيف يعني المشي من الطرف. وقد يكون المقصود بها الكرة أو الانسحاب من الأطراف، وفي الأصل يكون الانسحاب من الأطراف. والطريقة المعتمدة اليوم لدى الجيوش في الانسحاب، هي طريقة الرجوع. لكن المقصود هنا هو الانسحاب من الجوانب.

"والعطف بعد الحملة" طبعا الحملة يقصد بها الجند، والهجوم على العدو هذا هو الحملة، وهي الشدة، فبعد أن تهجم على العدو تريد أن ترجع، وهذا هو مفهوم العطف، الرجوع بطريقة الالتواء. ولا يكون الرجوع بطريقة مباشرة.

وهذه صفة على الأمير أن يعرفها، خصوصا حين يخوض هجوما على العدو أن يدرك كيف ينعطف ويعود إلى مواقعه. لأن عدم قدرته على العودة إلى مواقعه، يكون انسحابا وبالتالي هزيمة.

وعلى الأمير أن يدرك آلية الانعطاف، أين يوجه الميمنة وأين يذهب بالميسرة وأين يمضي القلب، هل ينسحب الجميع من زاوية واحدة، أم لكل زاويته ، وما هي أيسر الزوايا للمنسحب، ثم كم طول المسافة التي ينسحب فيها، فهذه المسائل والتفاصيل يجب أن يكون الأمير ملما بها.

"والإنابة بعد الجولة" وعلق المحقق هنا فقال، بعد الحولة، بلا نقطة، وربما يقصد بعد الجولة، أي أن تهجم على عدو فتنال منه، لكن ترغب في العودة لأنك لم تستكمل قوتك، أو رأيت العدو بدأ يرتب أوراقه من جديد فرتجع لكن بطريقة الرجوع القهقري، وهذه يشرحها أيضا الهرثمي – رحمه الله– في آخر الكتاب، مع العلم أن هذه الطريقة لا زال يعمل بها إلى

يومنا هذا، وفي كل الجيوش، أي الرجوع بطريقة الوثبات، كل مجموعة تغطي على الأخرى.

قال ابن الهرثمي – رحمه الله – :"... والإنابة بعد الجولة ، والرجعة بعد التولي، والسكون بعد الاستطارة، والطلب بعد الهزيمة، والركوب للمنهزمين، والإلحاح عليهم، والكف عنهم والانصراف بعد بلوغ الحاجة منهم إلى موضع المعركة، والتقدم للقتال، والتأخر عنه، والأمن من الخوف، والهزيمة من الفلج.".

"والرجعة بعد التولي" ، حين يتلوى الجمع ثم يهربون، أو ينسحبون ثم بعد ذلك يرجعون. فما المطلوب من الأمير، هذا مما عليه الإحاطة به. إذ يجب أن يكون لديه القدرة على أن يعيد هؤلاء إلى المعركة، وإذا أعادهم كيف يتعامل معهم وكيف يوزعهم من جديد، فيمكنه بداية أن يقنعهم ويطمئنهم ويعيد توزيعهم وتشكيلهم .. لأنه بالأصل لديه خطة احتياطية في حال وقع انهزام بشكل عام في أي معركة، بمعنى لديه معرفة كيف يتعامل مع الهزيمة.

"والسكون بعد الاستطالة" بمعنى وقوع أمر أفجعه، كالخوف الشديد والفزع، فيعلم كيف يسكنهم ويطمئنهم وينزل عليهم السكينة والوقار، وهذه صفة يجب أن يتحلى بها الأمير.

وقد يكون لدى الأمير الكثير من هذه الصفات وبعضها يفتقدها.. فيجب أن يرافقه من يعينه على تكملة هذه الصفات.. فمثلا إن كان الأمير ممتازا في مسائل الحرب لكنه غير قادر على تهدئة وطمأنة جنوده، فيستعين بطالب علم معه، أو أخ متمكن في هذا الباب. فيسد الخلل.

ولا يسمح بأن يبقى هذا الخلل، لأن هذه حرب، فعلى الأمير أن يبحث عن كل ما يسد به الثغرات ويعالج الأخطاء والنقائص ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وهذه هي قدرته. أي أنه لا يقصر في مسألة الإعداد، وحين يصل موقع المعركة يخوضها بما استطاع فعلا أن يجمعه ويجهزه ويعده.

والله أنا ما أنقص في مسألة الإعداد، لكن وصلت إلى المكان الفلاني، أخوض، بما استطعت تجهيزه وإعداده.

"والطلب بعد الهزيمة" بمعنى إن وقعت الهزيمة والجيش لا زال ثابتا، يجب أن يعرف الأمير، في هذه الحالة كيف يعيد ترتيبهم ويعيد الكرة من جديد، فهذا علم، يجب أن يفهمه، "والركوب للمنهزمين" أي حين ينهزم العدو، عليه أن يدرك ماذا يجب أن يفعله مع العدو الذي انهزم ، هل يتابعه؟ ومتى ذلك وكيف ذلك، ومتى تكون هذه المتابعة في صالحي ومتى تكون ضدي ..متى أعرف أنها مخادعة من العدو، فإن ترددت في تقييم الوضع، لابد أن أدرك كيف أتعامل مع العدو ، متى أتحرك بعد المنهزمين، ومتى لا أفعل، وإذا سعيت بعدهم إلى أي مسافة أصل، هذه جميعها من المسائل التي يجب على الأمير الإلمام بها ومعرفتها جيدا.

"والإلحاح عليهم" بعد اللحاق بالمنهزمين يأتي الإلحاح عليهم، أي التضييق عليهم وما هي سبل التضييق، هذه من المعارف المهمة للأمير.

"والكف عنهم والانصراف بعد بلوغ الحاجة منهم إلى موضع المعركة" ففي بعض الأحيان قد يلهيك عدو، يشغلك بسرية وتنسحب، فتسحبك من المعركة، ومقصد العدو الأول أن

يسحبك من المعركة، وقد تجد نفسك تقاتل في جبهة فإذا به يفتح لك جبهة أخرى بعيدة في ولاية ثانية، فتنشغل بتلك الجبهة وتنسى الجبهة الرئيسية. هذه من الأمور التي يجب للأمير العناية بها.

" والتقدم للقتال والتأخر عنه" فعلى الأمير أن يعرف متى يقدم ومتى يتأخر.

"والأمن من الخوف والهزيمة من الفلج" أي أن من صفات الأمير المهمة في الجيش، أنه، إذا كان الجند في خوف ثم رجعوا في أمن أو العكس فهذا التحول من الخوف إلى الأمن، يجب أن يدرك الأمير كيف يستنهض خلاله الهمم.. تتم فيه التعبئة والتجهيز، حتى لو كانت المعركة بعدما انسحبنا، لا يجب الاطمئنان والركون بل يجب الاستعداد الكامل، وكذلك العكس، التحول من الأمان إلى المعركة ، ووقت المعركة يجب أن أزرع في قلب المقاتل الأمن، في وقت يشعر بأنه مطوق أو محاصر، أو في ضيق علي كأمير أن أزرع في قلبه الأمن.. وليس المقصود بتأمينه أن أجعله ينام! بل عليه العمل والقتال في الجبهة، التي هي أصل الخوف فيحمل في قلبه الاطمئنان والثقة بفضل متابعة الأمير.

"والهزيمة من الفلج" وهنا تظهر أهمية المعرفة لدى الأمير، ففي بعض الأحيان يكون عنده نصر وهو يظن بأنه هزيمة! وأحيانا أخرى يكون العكس، لديه هزيمة ويظن أنها نصر!

وتكون أهدافه عالية جدا لكنه يقف عند هدف بسيط يلهيه عن الهدف الحقيقي، ويحرفه إلى ما لا يستحق.

ومعرفة الأمير بالفرق بين هدفه الأساسي وهدفه الجزئي الذي يخدع به، مهم جدا، كما يجب أن تكون لديه معرفة بمسألة النصر من الهزيمة ، ومن أكثر ما يقع فيه المجاهدون في كل مكان، أنهم يحققون نصرا عظيما جدا ولكنهم يظنون أنفسهم أمام هزيمة!

والمشكلة أن الأمير في هذه الحال يكون مهزوما نفسيا، لا يمكنه أن يقود جيشا.

فحين يعمل الأمير وكل العالم ضده لكنه يملك جميع الوسائل متاحة بين يديه، ثم يضيعها، فهذه مشكلة.

والإدارة لا تكون عند التمكين وإنما الإدارة في الاستضعاف، فمهما كانت الظروف نجد الأمير يكابد ويحقق الأهداف وهذا قمة النصر. لأن العدو يضعف في كل يوم وأنت تكبر، فإذا لم يدرك الأمير هذه المسألة فهو أمام مشكلة كبيرة.

أيضا قد يكون المرء في نصر ثم يقع في هزيمة ، فتتغير معها النفسيات، ويجب حينها أن يدرك الأمير كيف يتعامل مع هذا الحدث. وهذه من أولويات الأمير. لأن تحول الإنسان من حالة نصر إلى حالة هزيمة لسبب ما كالتقصير أو غيره، قد تكون سبب انتكاسه بشكل مباشر. وهنا يصل المرء لحالة انهيار، ولهذا يجب على الأمير في هذا الموطن، أن يتقن فن التعامل مع هذا الحدث والحفاظ على نفسيات الجند وكيف يرتب الجيش للعمل من جديد ومواصلة العمل.

ولابد من توضيح أن جميع المسائل التي ذكرها ابن الهرثمي -رحمه الله- في كيف نتعامل مع النصر، وكيف نتعامل مع الهزيمة ، أخذها من الأصل والمرجع الذي يجب أن نرجع إليه، لقد أخذها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أخذها من هدي الخلفاء الراشدين، كما قال

النبي ﷺ : "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجد"، فالمعرفة بحروب الردة والفتوحات، أستقيها من تاريخي أنا كمسلم، ثم بعد ذلك لا بأس أن أستقي من غير المسلمين ولكن بشرط، ألا أستقيه كهدي كامل كما أسلفنا، وهناك شرط آخر، وهو أن يكون هذا الذي أستقيه منهم لا يخالف شرع الله عز وجل، لأننا قد نجد بعض الوسائل، تكون أنجع وأقوى لضرب العدو وكسره في المعركة ولكن فيها مخالفة شرعية، توجب أن نتوقف عندها.

ومع طول قائمة الصفات التي ذكرها الهرثمي -رحمه الله- تبقى هناك بعض الأبواب لم يذكرها، منها باب الأعداء، وباب الرمي، لأن الأخير من أهم الأبواب، والنبي ﷺ قال: " ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي".

لقد تكلم عن الضرب بالرمح، والسيف والرمي، إلا أن إفراد الرمي بباب خاص به كان حقا، لأن أصل القوة هو الرمي، لقول النبي ﷺ (ألا إن القوة الرمي). ولأن الرمي يعتبر ركيزة الحرب، قال النبي ﷺ (الحرب خدعة)، فمسألة الخدعة هذه من المسائل العظيمة التي يجب أن تكون مرتكز الأخ في القتال، وركن القتال هو الحرب، وركن الحرب هو الخدعة والحيلة.

الصناعات

وهنا أيضا مسألة الصناعات، حيث يقال: "يشترط في السلاح ثلاث أشياء، أن يكون دقيقا أن يكون مرنا وأن تكون ذخيرته مستمرة"، فما فائدة سلاح لا دقة فيه، ثم لابد أن يكون مرنا غير ثقيل فتتمكن من المناورة به، ثم لابد أن تكون ذخيرته متوفرة لا تتوقف بعد أن تضرب أربعمائة أو خمسمائة طلقة ثم يصبح بلا نفع.

لهذا تعتبر الصناعة ركنا أساسيا في الحرب. ومع أنها مهمة، إلا أن الهرثمي لم يذكرها في باب الأمراء ولكن ذكرها في باب الجند وكأنه يقول أن الأمراء لا ينشغلوا بالصناعات، إنما ينشغل بها الجند، وهذا مجرد تحليل.

وجاء في كتاب الفروسية لابن القيم، مسألة مهمة، حيث يقول ابن القيم - رحمه الله- وهو يتكلم في باب المناظرة والمفاضلة ما بين القوس باليد وقوس الرجل: - يبدأ حديثه باسم القوس الذي باليد يخاطب المقاتل فيقول-: "وأنت قد عرفت أصلك وفصلك، ومن رمى بك، وعدة أي قوم أنت، فإن معول طائفة الإفرنج عليك وهم قوم لا قدم لهم بالفروسية، وإنما غالب حروبهم بالآلات والصناعات، كما أن غالب حرب كثير من الترك بالكيد والخديعة والمكر، وبذلك استولوا على كثير من البلاد ودوخوا العباد.".

بمعنى أن الصناعات على مر التاريخ كانت للعجم وللإفرنج ولم تكن للعرب، لأن العرب كانوا يركزون اهتمامهم بالمقاتل، لا بأداة القتل، لا ينفي هذا الاهتمام ولكن في المقارنة الفرق شاسع، ويحظى المقاتل بالاهتمام الأكبر، بصفاته بتدريبه، بشكل أكثر بكثير من الاهتمام بالسلاح، وهذه خاصية عندنا أننا نهتم بالمقاتل أكثر من أن نهتم بآلة القتل، وهذا لا يعني أننا نزهد عن التقنية ولا نزهد عن السلاح بالعكس، من استطاع أن يبتكر فليبتكر ومن استطاع أن يصنع فليصنع، نحن ندعو لهذا الشيء، لكن أيهما أعظم عندنا، بناء الآلة أم بناء الرجل؟ لاشك أنه بناء الرجل، لأن الرجل إذا ابتني بناء صحيحا هو الذي أيضا يبني هذه الآلة.

ثم لماذا تفوق الغرب والإفرنج عموما في صناعة السلاح ؟ فلأنهم يقاتلون من وراء جدر، لديهم شجاعة لكن تنقصهم صفات فيعوضونها بالسلاح.

أيضا من الأسباب استبطاء النصر، فهم لا يريدون الانتظار طويلا، فيلجأون إلى ابتكار سلاح يكون دماره أشد وأكبر، وآلة ليقاتل من وراءها ، صحيح أنها تعتبر قوة لكن في نفس الوقت تعتبر ضعف، مثال على ذلك حين يقاتلنا العدو بالتقنية ، فلو أصابها أي شيء وتعطلت ، أو تمكن الإخوة من إيقاف هذه التقنية، أو أن هذه التقنية انتهت صلاحيتها عند العدو نفسه لأي عارض ولأي سبب، فتنتهي قيمتها وخسر عنصر القوة الذي يختفي خلفه.

بينما حين نعد الرجال وإن انتهت أو تعطلت التقنية فقتالهم مستمر، لهذا نحن لا نزهد في موضوع السلاح لكننا نؤكد على أهمية إعداد الشباب وتجهيزهم أكثر من إعداد السلاح نفسه.

أفضل خصال من استعين به في الحرب من أهل الطاعة

قال الهرثمي – رحمه الله– : أفضل خصال من استعين به في الحرب من أهل الطاعة[11] وبالنسبة لنا كمسلمين فهي صفات يجب أن تتوفر في الجندي والأمير، وإنما الخلاف بين الوظيفتين يكون في الواجبات والمسئوليات، فكما على الجندي الصدق، على الأمير الصدق، وكما على الجندي الأمانة، فعلى الأمير الأمانة، وكما على الجندي المسئولية، فعلى الأمير المسئولية، وليس فقط في الجيش والعساكر، بل حتى العبد مسئول عن سيده، والمرأة مسئولة عن بيت زوجها، فهذه صفات توجد عامة عند الجميع، وهذا يكشف لنا عن حكمة عظيمة جدا يتميز بها المسلمون عن غيرهم وهي سهولة بناء القيادة لديهم. سهل عند المسلمين بناء القيادة التي تقود الأمة، مهما قتل الأعداء فينا، وهذا ما يشهد له

[11] يعني الجند

الواقع، فمع كل الاستهداف الذي يمارسه الأعداء فينا، وفي الأخير يستمر الجهاد لأن نشوء القيادة عندنا ومن يقوم بالمسئولية سهل، وهذا لا يعني أن عملية البحث ليس فيه مشقة إلا أن إيجاد القيادات يبقى أسهل بأضعاف مضاعفة من إيجادها في الجيوش الكافرة، فلا يصل القيادي إلى رتبة يعتمد عليه كصاحب خبرة وتجربة إلا بعد سنوات طويلة، أما عندنا، فيأتي الأخ وبعد مجرد ثلاث أو أربع سنين إلا ويصبح من خيرة الإخوة في باب القيادة، فهذا دليل على أنه، وبفضل الله كلما تمسك الإخوة في التنظيم بمسائل الدين، كلما كان هذا أوفق وأرجح لقيادة هذه الأمة، ونحن الآن نعيش مرحلة تحتاج فيها الأمة من يقودها، فلا أقول أنا لا أسعى واجعلني للمتقين إماما، فما دامت الأمة والجماعات تشكو ثغرة من قلة القيادات، إذن يجب علي أن أسد هذه الثغرة خصوصا عندما يتعلق الأمر بالتعيين ويصدر أمر: فلان هذه عليك. فهذه المسألة من المسائل المهمة جدا.

ثم لننظر في إحصائيات الحرب العالمية الأولى والثانية لنجد أن نسبة قتلى القيادات لم يتعدى 1% بينما قتلى المسلمين في القيادة التي كانت في عهد النبي ﷺ وفي حروب الردة وفي الفتوحات، وصل لأكثر من 65%، يعني لو كان عندنا 100 أمير نجد أن 65 قائد منهم قتلوا.

وتفسير ذلك، أن عند المسلمين القائد في الأمام، (أنت إمام فكن في الأمام)..

ثم يقول لك قائل لماذا يقتلوا؟ فهذه حرب والقيادات تخوض القتال ليحافظوا على دماء المسلمين وليحافظوا على مسار العمل الجهادي الصحيح، لهذا لابد أن يقتل منهم، وهذا اقتداء بالسلف الصالح ، فهذا الصحابي الجليل أسعد بن زرارة رضي الله عنه، عندما أخذ الأنصار

ببيعة العقبة الثانية، فقال أتدرون على ما تبايعون؟ قالوا يا أسعد أمط عنا يدك، قال: إنكم تبايعون على قتل خياركم! فهذه خاصية عندنا نحن المسلمين، من يمتلك زمام القيادة في هذا الطريق وتحمل وظيفة مسئول يوطن نفسه أن الشهادة قد تحل في أي وقت فلا تنكسر النفس لأن تحرك الأخ في جبهة أو مكان ما تنتهي بمقتله..

ومع ذلك يجب أن يسعى الأخ إلى الحذر الشديد وأن يأخذ كل الأسباب ولا يمنعه هذا من القيادة والتحرك.

يقول الهرثمي – رحمه الله – :"أفضل خصال من استعين به في الحرب من أهل الطاعة، اللزوم لمراكزهم من الخوف و(معرفة) الظفر من الهزيمة، والمعرفة عند اللقاء لأصحابهم من أعدائهم، مع البصر بأنواع أسلحتهم وعلاجها، وصنعة ما يمكن صنعته منها، والحذق بالعمل في الحرب بأنواعها، والمعرفة بالدواب وآلاتاها، وعلاجها ومصلحتها والقيام عليها".

قال أولا : اللزوم لمراكزهم، يعني إذا وضع في ثغرة، لا يحيد عنها، لا يتركها، لأنه بتركها ستؤتى الجماعة منه ومن المهم أن يعلم كل واحد مكانه، ذلك أن بنياننا كالجسد الواحد، كالجدار، هذا ما تنص عليه شريعتنا (مثل المؤمنين في توادهم ... كمثل الجسد)، (كمثل البنيان) ، (المؤمن للمؤمن كالبينان) وشبك الرسول ﷺ بين أصابعه، وفي البنيان لو خرجت منه لبنة من مكانها سيدخل منه الهواء، وتمثل ثغرة، وكل لبنة في البناء لها مكانتها، فلو اللبنات التي في الوسط أرادت أن تصعد فوق أو أرادت أن تنزل إلى أسفل، سيحدث الخلل عند الجميع، فمن أهم الصفات هي اللزوم.

وقد تجد لدى الأخ صفة السمع والطاعة، لكن لا يتحلى بالصبر، لا يستطيع أن يجلس في المكان الفلاني أو الموقع الفلاني. وإن أبدى القبول بداية إلا أنه لا يواصل.

وهذه مشكلة في العمل الجهادي، وكثير من العمليات فشلت والسبب أن الأخ لم يلزم مكانه مجرد أن يجلس قليلا ثم ينسحب، ثم يسارع لتقديم أي عذر، فسواء كان عذرا مقبولا أو غير مقبول، في الأخير لقد أحدث الأخ ثلمة يدخل علينا العدو منها.

ولنا عبرة فيما حدث مع صحابة الرسول ﷺ مع أنهم صحابة رسول الله ﷺ ومعهم رسول الله ﷺ، حين نزل الصحابة رضي الله عنهم من الجبل ولم يلتزموا أماكنهم فالتف العدو عليهم وتحول النصر إلى هزيمة. وهذا بقي درسا يتوارثه المسلمون منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا.

يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله – : " وصلت رسالة بعد أيام تقول أن العملية فشلت، وهي عملية عمل على رصدها الإخوة منذ 3 أشهر تحمل غنيمة تصل إلى 30 أو 40 مليون دولار، والسبب بسيط جدا، وهو أن الأخ الذي كان في موقعه، في خطة الكمين الذي نصبه الإخوة. حيث اصطف الإخوة في 4 أطقم، ووزعوا 2 من جهة وواحد من جهة أخرى، فلما رأوا الهدف يتقدم ويصل إلى المكان ويطفأ.. ثم تقدم أحد الإخوة بالسيارة إلى هذا المكان، وعندما جاءت المجموعة التي عليها الهجوم شاهدت السيارة فظنوا أنه هو الهدف بينما الهدف اكتشف أمر الإخوة وتراجع، الشاهد من القصة أن العمل فشل بسبب تغيير الأخ لموقعه، وتبقى من أعظم الصفات، الصبر واللزوم، فالسمع والطاعة مسلم بها، وإنما المشكلة ما بعد هذا السمع والطاعة ونحن نعلم أن النصر مع الصبر."

ومسألة لزوم الأخ موقعه لا نقصد بها أن يلزم موقع القتال فحسب، إنما هي أصل بشكل عام، فإن كان فلان في ديوان الجند عليه أن يبقى في ديوان الجند، وإن كان في التسليح، فعليه أن يبقى في التسليح، وكما قالوا: من ثبت نبت، أما أن يستلم الأخ العمل اليوم، ثم بعدها يترك العمل، فكيف يمكن الاعتماد عليه؟

ثم لدينا قاعدة بالتجربة في الميدان أن الأخ الذي يأتيك شديد الحماسة: هيا هيا للمعركة، تجده في الغالب صاحب خبرة قليلة ولهذا يريد أن يقدم.

ولا نتحدث عن أهل التجربة الذين نعرف شجاعتهم قد يظهر منهم بعض الارتباك فليست مشكلة..

لكن في غالب الأمر، من يأتيك للمعركة وهو مستعجل وشديد الحماسة هو أول من ينسل.. ذلك أنه لا يعرف ما معنى المعركة، ربما شاهدها في الأفلام أو سمع عنها..

وحين تكون أنت أمير لا تتأثر به، ولا تستعن إلا بمن يثبت، والكلام ليس دليل ثبوت..

والمعيار هو أن يكون صاحب تجربة سابقة، ما يعني لا يستجيب الأمير لهذا العجول، خصوصا في البداية بدون أي تجربة..

فالأخ الجديد يتحمس للعطاء ولكن عندما يسمع الانفجارات ينسحب، وحين نتحدث عن دور الأمير في إعانة الأخ بتعيينه في موضع لزوم لموقعه. فهذا يعني أن تعطيه عملا يناسبه.

فلا يضع الأمير الحكيم عند خط القتال في المقدمة الأخ الجديد ، بل يضع الأخ الذي له تجربة سابقة ويعرف بشجاعته، فثبات من في المقدمة يعني ثبات من خلفه..

ولكن أن تضع في المقدمة إخوة جدد لا خبرة ولا معرفة لهم بالقتال، وتترك خلفهم الأشجع، فأنت تفتح الباب أمام الهزيمة.. وهذه مسألة وجب التنبيه لها.

وفعلا من أفضل الصفات - صفات الجند – أن يكون الأخ ثابت في عمله، تستطيع أن تعتمد عليه، بل حتى لو علمت أن الأخ هذا يناسب في العمل الفلاني ولا يوجد أفضل منه ثم رأيته لا يثبت فأنت لن تستطيع أن تعتمد عليه.

وربما تشاع بعض الأحيان بين الإخوة، مقولة: أنصحك لا تلتزم بعمل. وفي الحقيقة يعد هذا من التفلت العظيم، إنما أنت مطالب بسد ثغرة من هذه الثغرات، ينفع الله بك الإسلام والمسلمين، ولكن عندما لا تسد هذه الثغرة لإخوانك، فهذا تفلت، وكم دفعنا بسبب هذا التفلت.

ولعل الأشد منه حين يستلم أحدهم عملا ويبشرك، ثم بعد يومين تجده ترك هذا العمل وانتقل لمكان آخر، فهذه مشكلة كبيرة جدا.

قال الإمام علي ﷺ حين سئل : كيف بلغت، قال: إنما أنا بإخواني.

ورغم أن الحديث هنا عن صفات الجند فلأن على الأمير معالجة هذه المسائل.

أن يضبط الأخ الذي يكثر التحرك، ويحاول زرع صفة اللزوم في إخوانه.

ونلاحظ أننا لا نتحدث عن الصفات الأخلاقية بشكل عام، لأن أمرها مسلم به وهذا أصل، إنما نتكلم عن الجزئيات في موضوع القتال والعمل.

أيضا على الأمير أن يحسن توظيف إخوانه، فلو كان لديه عملية وفلان تزوج منذ أسبوعين، فلا يمكن أن أعتمد عليه في معركة أو عمل.. أو أن فلان عنده مشروع يشغله ببناء بيته، لأنه سيأتي أربع أيام ثم يرجع وينسحب ليتابع مشروعه.

فعلى الأمير اختيار الأخ الذي يمكنه اللزوم.

وقد نصادف نوعا آخر من الإخوة، من لا يستطيع اللزوم في منطقة لكن في أخرى نجده يحسن الالتزام. فعلى الأمير أن ينقله للمكان الذي يحسن فيه الالتزام وهذه من واجبات الأمير.

والسياسة من الأمير أن يعرف كيف يروض الأخ.

أي تساعده بصفاته التي عنده وتعينه على أن يخدم دين الله عزوجل بما لديه، فإن وجدته لا يستطيع أن يتخلص من صفة فيه فعليك كأمير أن تساعده قدر المستطاع.

وفي الأصل الجندي يكون معين للأمير ، إن كان في الساقة كان في الساقة، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، بل إن بعض الإخوة عندما تأمره بأمر تجد البشاشة في وجهه، فتتشجع مرة ثانية أن تأمره، وعندما يستلم عملا يقوم به على أكمل وجه ويثبت فيه ويصبر فيه، فتجد نفسك متشجعة على أن توكله أعمالا أخرى.

قال: "اللزوم لمراكزهم من الخوف" وكلمة من الخوف تأتي لأنه يتحدث عن القتال تحديدا، فالموقع هذا موقع خوف، موقع موت، وفي مثل هذا المكان يجب أن تتخير الرجال الذين تعلم جيدا أنهم ملازمين وكذلك في الأمكان التي تشعر أن العدو قد يدخل عليك منها..

فتستعمل لمثل هذه المواطن نوعا معينا من الجند يتصف بالمواظبة واللزوم لا يترك ثغره لأي سبب، وإن اضطر لذلك، وكان سببه صحيحا فسيعلمك قبل أن يتحرك.

قال : "ومعرفة الظفر من الهزيمة" بمعنى تنتقي أفضل الجند، الذي يعرف النصر من الهزيمة، يعرف أسباب النصر من أسباب الهزيمة، ويشتهر أنه يثبت حتى النصر، ليس بخذول، سريع الانسحاب..

وقد تصادف أخا في الميدان يرجع للأمير في كل صغيرةو كبيرة، يكيل الأسئلة لماذا لم نفعل كذا، ولماذا فعلنا كذا؟ ولماذا؟ فهذا يعتقد أنه يعالج الأمور لكنه يشغل الأمير أكثر مما يعينه.

وآخر كلما رأى أمرا ظن أنه خلل، فيتحرك بحجة المعالجة، بينما هو على ثغر، معتقدا أن هذا التحرك من أسباب النصر بينما هذا من أسباب الفشل، مثل الذي يدخل المعركة يصيح، ويظن أنه يشد أزر إخوانه، وفي الواقع هو يخلق لهم الفشل.. لأنه لا يستطيع أن يميز بين أسباب النصر وأسباب الفشل.

ثم بعض الإخوة قد يقول من الكلم ما يبهر، ثم تجده يدمر العمل برمته.. ويقول كنت أريد أن أصلح!

وفي موطن حصلت فيه هزيمة، يقول النبي ﷺ (استووا خلفي لأثني على ربي). فليس الوقت وقت عتاب.

وقد يأتي أخ ينتقد الإعداد لماذا لم يكن 100%. ولكن المطلوب منا شرعا أن نعد ما استطعنا، لا نقصر .

فأما أن قصرنا في شيء نستطيع أن نؤديه بشكل أفضل فهذه التي يقع فيها اللوم والإثم.

أما أن تكون هذه أقسى قدرتي، فهذه من المسائل التي يجب استيعابها في طبيعة العمل. سواء عند الجندي أو عند الأمير..

يقول النبي ﷺ : (إعقلها وتوكل) فعندنا نحن المسلمين السبب وعندنا التوكل، وحتى اتخاذنا للسبب قائم على التوكل على الله عز وجل، أي بعد أن نعد للمعركة نتوكل على الله،

وكذلك عند الكفار ونجد هذا في كتاب "فن الحرب" الذي يعتبر مرجعا للعلوم العسكرية عند الغرب للمنظر الألماني المشهور كلاوزفيتز.. إذ يقول: " بعد أخذ كل ما يمكن عمله في الحساب، فإن هناك فرصة خمسين في المائة من النجاح، والباقي يمكن أن تعزوه لإرادة الله إذا كنت مؤمنا، أو الحظ إذا لم تكن مؤمنا".

فهذا ثابت بالتجربة سواء عند المسلمين أو عند الكفار، ونجد جواب نابليون حين سألوه: كيف تحسب نتائج المعركة؟ فقال: أدخلها وانظر النتيجة.

بمعنى أنه لا يستطيع أن يسحبها.

ويقال تنتهي المعركة (أي خطتها وترتيبها) عند أول طلقة.

فنحن نضع الخطة والرؤية ، والعدو سيأتي من هنا فنقطع عليه، ولكن في الأخير نحن نقاتل عدوا يضع أيضا سيناريوهات وخطط أمامه.

بحيث يعرف كيف يتصرف في حال حصول أمر مخالف لتوقعاته.

وتظهر في العمل عادة أمور لم تكن في الحسبان، وهذه من طبيعة الحرب.

ونحن حين يهجم علينا العدو نأتي أيضا بأفكار جديدة ونراوغه ، ولا شك أن الجند الذي أحسن استيعاب هذه المفاهيم يعد من أفضل الجند في المعركة الذي يعين في العمل.

وقد نواجه في الميدان مشكلة أخرى، هي المفهوم القبلي، ينفر الجنود بطريقة قبلية ما أنزل الله بها من سلطان.. وحين نتأمل كيف أن الصحابة ﷺ الذين حضروا جميع المعارك حين تخلفوا في الأخير عن معركة واحدة كيف أطلق عليهم اسم خوالف.. قال تعالى: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) ندرك عظمة الأمر.

واليوم عندما يستنفرك الإخوة لأمر عظيم ، لجبهة تكاد تسقط، فتقول سأقاتل معكم ليوم واحد وأرجع!

وفي الواقع أنت بهذا الشكل تعتبر فار من الزحف.. يأتيك أمر أن تراسل المجموعة وتتحرك، ثم تختفي يومين وترجع.

فهذا النوع من الجند لا ينفع في العمل، ولا يعين على الخير.

ومن يقدم على مثل هذه التصرفات إنما يخذل إخوانه في موطن أحبوا أن ينصرهم فيه.

فليس القتال ليوم أو يومين بحسب رغباتنا الشخصية ومزاجنا.

فكيف يحسب هذا النوع من الجند على المجاهدين.؟!

وعلى الأمير أن يفهم الإخوة الأحكام الشرعية في هذا الباب، وخطورة ترك العمل والقتال، فهذا فرار من الزحف، خاصة عندما يعول الإخوة عليك ويقدموا على الترتيبات اللازمة،

ثم تضطرهم للانسحاب لأنك لم تلتزم بجدية العمل، وكأنك في لعبة؟!

وهذه مسألة يجب التنبيه إليها والتواصي، فكثير من الإخوة يجهل خطورتها.. ويظن أن المسألة مجرد غياب، إنما هذا إثم عظيم.

ويدخل في هذا السياق أيضا أهمية الإعداد عندنا نحن المسلمين فهو في عقيدتنا أعظم شأنا من الإعداد عند أعداء الله، هو عندنا عبادة، (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ونلاحظ كلمة قوة جاءت نكرة، بمعنى علينا أن نعد كل ما بوسعنا وما يمكننا..ثم نحسن التوكل على الله.

يقول الشيخ قاسم الريمي — حفظه الله – : "وإنما أتوكل على الله عز وجل، أولا وآخرا، فكم من العمليات رتب لها الإخوة مائة في المائة، ثم ماذا كان مصيرها؟ ماذا كانت نتيجتها؟ مثال على ذلك عملية أبو الخير – رحمه الله– فقد قام الإخوة بتجربة العملية قبل أشهر على خزانات، خزان ماء، أو صبة ، فنسفتها نسفا، وكانت الكمية المستعملة 100 غرام، ثم عمليات كثيرة تم تجريبها في الهواء الطلق، على صخر كبير، وكلها كانت نتائج مرضية ، ولكن حين أرسلوا أخانا، دخل ووصف لهم كيف هي طريقة الاستقبال وكيف المكان الذي يحتمل أن يكون فيه التفجير، فجهزوا عبوة تحمل أضعاف مضاعفة مما تم تجريبه، فقد كانوا يجربون مائة غرام، فعمدوا لصناعة عبوة بحوالي نصف كيلوغرام! من مادة التترانيوم، وهي مادة قوية جدا، وبحسب الحسابات المنطقية كان من المفترض أن يقتل الهدف، لكن لم يقتل! لماذا؟ (ليس لك من الأمر شيء)!

بمعنى أن الله عزوجل أراد لهذا الرجل مُحَّد بن نايف العدو أن يعيش ويأكل ويشرب ويحارب دين الله عز وجل، ويمرض ثم يهان الآن في قصره، وينكسر، هو أسير كسير، ذليل، أراد الله عز وجل أن يذله، والله أعلم ما ينتظره في قابل الأيام.

ونفس القصة كانت مع القذافي، فقد أخذ الإخوة القنبلة ورموها وسطه، فدخلت القنبلة وسط السيارة التي يركبها، ولكنها لم تنفجر! لأن الله أراد له نفس القصة، وأراد الله أن يموت موتة شنيعة. هكذا أراد الله عز وجل.

نفس القصة مع حسني مبارك، رمى الإخوة عليه، وأنا بنفسي جلست مع الأخ الذي كان معاهم، فقال الأخ وصل إلى نافذة السيارة ورمى بالكلاشن[12] على حسني مبارك، ولكن

---

[12] السلاح

الطلقة لم تخرج! وحين بحثوا عن السبب، وجدوا أن بعض الأحيان الأقسام تحتاج إلى دفع، بسبب صدأ أو عائق.

فأراد الله عزوجل أن يبقى ويأكل ويشرب حسني مبارك ثم يهان ويسجن والله أعلم كيف سيكون مصيره.

لهذا يجب ألا نتعلق بالأسباب، نعمل لكن في الأخير إذا ما وصلنا لما نرمو إليه نصبر، فمثلا رتبنا لاقتحام مدينة، ثم لم نوفق، هل ترجع تلعن! (كلما دخلت أمة لعنت أختها)، هذا انهزام، فعليك أن تدرك طبيعة العمل، هكذا هو العمل، يعني هناك نصر، فيرى الله عز وجل كيف تكون عبودية النصر، هل ستشكر، هل ستحمد الله عز وجل؟ وأيضا هناك عبودية الهزيمة، تقطر الدماء من النبي ﷺ ومن أصحابه، وهو يقول (استووا خلفي لأثني على ربي) ليس أن تدخل في لوم وعتاب وتململ ونكد... هذا ضعف. وبدل كثرة الكلام هذا وقت ذكر الله عز وجل، وحمده، والحمد لله على كل حال، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، هذا وقت، ذكر الله عز وجل والثناء".

الأرواح بيد الله

ويضيف الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله– "أنا أذكر قصة حصلت معي شخصيا ، وهي قصة يجب أن تكون حاضرة لدينا جميعا، تجد السيارة تم إعدادها وتضرب الهدف وتنفجر في الهدف، ولكن يقتل مرافقيه وهو ينجو! بعض الأهداف حاولنا معها 6 إلى 7 مرات، ولم ننجح، يفقد الهدف يده أو يصاب، لكن في الأخير يبقى حيا. ويقول أحدهم إلى متى! ونحن لم نتمكن من فرد واحد، ولكن الأرواح ليست بيدنا هي بيد خالقها عز وجل.

وأذكر في يوم كنت مع العم سعيد خرسان، من أهل مأرب نسأل الله أن يتقبله، فخرجنا فوجد حماما، حماما بريا، فنزلنا نشرب الشاي، ونزل هو يصطاد الحمام، فأقام الحجارة، وأخذ موقعه، وضبط أموره ورمى، فلم يصب الهدف. وطبعا أنا أعرف عم سعيد إذا لم يصب هدفه، يستمر في ضبط السلاح والتصحيح والقياس ويرتب نفسه من جديد وتصبح قصة! حتى ينجح، وفي ذلك اليوم حين لم يصب الحمامة أنا قلت خلاص! سنجلس اليوم من العصر إلى المغرب مع العم سعيد نضبط في سلاحه (بندقه) لكنه على عكس ما توقعته، أغلق الأمان، وجلس يشرب الشاي ، ثم نظر إلي وقال: أنت مستغرب! قلت : نعم. قال: انظر يا بني – وهذا درس لنا جميعا – قال لو كان الهدف حجرا، كنت استغرقت وقتي في ضبط السلاح وأنا أعلم أن الخلل من عندي، فهذه مادة وهذا مادة، هذا حجر وهذا سلاح... ، أعد وأضرب، لكن هذه روح بيد الله عزوجل، باقي لها نفس! باقي لها عمر! قال تعالى: (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين).".

وهذه العقيدة التي نؤمن بها (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها) فعلى رسلنا، يجب أن نفهم من نحن، ونفهم ديننا، ونقاتل بعقيدتنا، نقاتل بما لدينا، لماذا نهزم أنفسنا بأنفسنا! بسبب الجهل!

إذن تبقى هذه المسائل من الواجب أن نفقهها أولا ثم نفقهها إخواننا."

الارتباك

يقول الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله – :" حصلت تقريبا 3 أو 4 مرات عندنا يخطأ الأخ ويضرب إخوانه حين يدخل المعركة، للارتباك! بل وصل الأمر أن أكثر من أخين أو ثلاثة كل واحد منهم قتل أخا أو أصاب أخا، فوجب التنبه لهذه المسألة أن عند بعض الإخوة شيء من الارتباك، عند بعض الإخوة صعوبة في التمييز بين الهدف والهدف الثاني.. مثل أخونا رحمه الله في وزارة الدفاع، الهدف لم يكن للاستهداف أبدا، وهذه عملية نوعية ، عملية تكلف بها كتنظيم ونحن بعد أن وقع ما وقع، سألنا، قالوا الأخ بعض الأحيان يفصل لا يشعر بالجو من حواله، بالرغم من أننا درسنا تاريخ الأخ وقصته، قبل انتدابه، وسبحان الله هذه الجزئية من تاريخه لم تذكر حينها، وكأنها لحكمة يريدها الله عز وجل، فتبقى العمليات التي يحصل فيها اختلاط سواء مع إخوانك أو مع عامة الناس تنتبه لها، مع أننا لا ندخل في عمليات فيها اختلاط".

المعرفة بأسلحة العدو وحسن التعامل

قال: "مع البصر بأنواع أسلحتهم وعلاجها" بمعنى من أفضل الجنود الذي يعرف أنواع أسلحة العدو ويعرف كيف يتعامل معها، يعرف الدبابة وكيف يتعامل معها، يعرف أن هذا السلاح مضاد لماذا تحديدا، ثم إذا كان في معركة يكون يقظا، لا يحتاج لأن تنبهه لكل صغيرة وكبيرة مثل بعض الإخوة، فبمجرد دخوله العملية تجده قد درسها.. وانطلق بعبقرية يبلي البلاء الحسن.

مثال على ذلك أن يصل المجاهدون إلى منطقة فيها قتال، ويتمركز على قمة قناص يستهدف الإخوة، فأفضل المقاتلين هو الذي يتجه مباشرة خلف هذا القناص ويتخلص منه، دون أن ينتظر الأمر أو التوجيه بذلك.. فهذا دليل على ثباته وعقله وتركيزه ما جعله يتعامل مع الأمر الحادث بمرونة وسرعة مناسبة.

وفي الواقع يحتاج العمل العسكري لمثل هذا النوع من الجند، وهم أفضل الجند.. فإن لم يتوفر هذا النوع فنعمد على تعليم هذه المسائل للجند وكيف يجتهدون في مثل هذه المواقف.

مثال آخر يعكس حسن تعامل الجندي والتفاعل مع الحادث بكياسة وفطنة، أن يكون المجاهدون في معركة يهجمون على معسكر، وظهرت دورية للعدو تحاول قطع الطريق على المجاهدين في داخل المعركة، وبإمكان الأخ أن يتحرك ليفك هذا الحصار، فلا يجلس ويعتبر نفسه في طاعة وملازما لمركزه كما طلب منه، بل يقدر حجم الخطر ويتحرك على أساسه، ويوفر على إخوانه كارثة حصار قد تقع، وهذا من أفضل الجند من يدرك متى يتعامل وكيف يتفاعل مع الحدث الطارئ.

ثم قال: "وصنعة ما يمكن صنعته منها" يعني أفضل الجنود الذي يصنع السلاح فمثلا يصنع الرصاص، أو غيره من آلات قتالية.

"والحرف بالعمل في الحرب بأنواعها" أي أنه يحمل معرفة جيدة بالهجوم والانسحابات، بالكمائن وبكل ما يدور في فلك العمل العسكري. وهذا يدل أيضا على أن عليه تدريب إخوانه في هذه العلوم والمعارف والخبرات.

من بركات المعرفة

قال " المعرفة بالدواب وآلاتها" والآن عندنا السيارات ..

قال الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله- :" أذكر عندما انسحبنا من كابول إلى زرمد في خوست، كان عندنا أخ قائم على السيارات ووالله لقد كان بوحده سرية، فقد كان لدينا أكثر من أربعين سيارة ، إذا عطلت لنا سيارة نأخذها لآخر الدنيا إلى مكان بعيد، ولكن هذا الأخ قام بالجهد كله، وكذلك حال أخ آخر في مجال الطب، حيث كنا نفتقد للمساعدة الطبية، وكان عددنا 250، منهم أكثر من 30 أو 40 جرحى، وكان عندنا أخ ليس محسوبا على الخدمات الطبية، لكنه قام بالواجب على أكمل ما يكون، فكم نفع إخوانه..

وحقيقة هذه الصفات التي ذكرها ابن الهرثمي، تأتي في معنى، قيمة المرء ما يتقنه، فكل ما كان لديك معرفة في العلوم العسكرية أو في مجال ما، قدم لدين الله عز وجل، وكم تكبدنا نتيجة فقد هذه الهمم، فقد وقع في يوم أن كنا بحاجة لمساعدة طبية، وكان لدينا أخ من خيرة الإخوة يحتاج علاجه فقط أن يحمل ويوضع على وسادة إلا أن الجهل بهذا التفصيل جعل الأخ ينزف حتى يموت، مع أن علاجه كان بسيط جدا، فقط أن يرفعه الأخ على وسادة. ولو أنه تعلم إسعافات أولية - يتعلمها في أيام معدودة- دخل في معنى (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)، ولاشك أن لهذا أثره في الميدان، ولهذا كل ما وجد الإنسان فرصة للتعلم فليتعلم، فإن كان عندنا إخوة في الإعلام أتعلم منهم كيف أصور المعركة ، وصلت إلى مكان عند الإخوة في الخدمات الطبية أتعلم منهم الأمور الطبية، ليس بالضروري أن الأمير يأتي ويقدم لي دورة، أنا أتعلم من إخواننا، والأخ أيضا مطالب ألا

يكتم العلم على إخوانه، وهنا نذكر مسألة لها علاقة بالعقيدة القتالية، عندنا نحن المسلمين يتعلم الأخ أي شيء يستطيعه، في علم خاص، مثلا الوثائق، مثلا المتفجرات، أي علم فيه أثر على الناس، كلما وجد الجندي فرصة للتعلم تعلم، كلما وجد فرصة للتدرب، تدرب، العقيدة الغربية لا، لديهم شيء اسمه تخصص، الإسم جميل لكن تجد صاحبه 30 ، 40 سنة وهو لا يعرف إلا قيادة الدبابة! لا يعرف يذخّر ولا أي شيء آخر! فهم يتعاملون مع الجندي بهذا الشكل بينما العقيدة الإسلامية تتعامل مع المسلمين الجند مثلما تتعامل مع المسلمين ككل، بأخلاقهم وإحسانهم، لا فرق بين الأمير والمأمور، والتفاضل بتقوى الله عز وجل، فما يستخدم الجندي كآلة وإنما كمجاهد في سبيل الله عز وجل، وقد يكون المجاهد الجندي هذا أفضل عند الله من القيادات كلها، وأيضا العلاقة بيننا في الجيش قائمة على الثقة، بينما الغرب، لا يتعاملون مع جنودهم بثقة.. يتركونه على دبابة فقط، ولا يسمح له بأن يتعلم أكثر من ذلك، لأنهم يخشون أن ينفصل في المستقبل عنهم، ويقود ثورة أو تمردا ضدهم فيحرصون على تحديد وظيفته بشكل جاد، كأنه مسمار فقط في الدبابة ، عليه أن يسوق وغيره عليه أن يذخر وآخر عليه أن يصوّب.. بينما عندنا يتعلم الأخ كل شيء في الدبابة في المدفعية في مضادات الطيران في كل ما يدور في فلك جهاده."

وهذه مسألة مهمة جدا، أن على الأمير أن يدرب إخوانه، أو أن يزرع بين الإخوان ثقافة التعليم بينهم، أي أن كل أخ يدرب أخاه.

خطأ ميداني

تبقى مسألة أخرى، عند الشروع في عملية، يعمد الأمير إلى اختيار نخبة الإخوة للقتال.. وهذا خطأ فادح، فلو وقع لهم شيء، خسرنا النخبة، ثم ماذا عن المواقع الأخرى، والقاعدة في هذا ألا نقوي عضوا على حساب الجسد.. فلو كانت اليد تضرب أفضل ضرب، والأقدام فيها تعب، لن نستفيد، لابد أن تخدمنا القدم كما اليد.

نفس القصة في الأجهزة في اللجان، يجب أن يكون التكافؤ موجودا لدى الجميع، لا أعمد لاختيار النخبة ثم أضعف بقية الأماكن.

والهدف من هذا أن يتعلم الأخ الذي عنده خوف من الأخ الشجاع، والأخ الذي ليس على دراية بالأسلحة من الأخ العليم بهذا العلم، والأخ الذي يجهل فنون الاقتحامات من الأخ المتمرس فيها..

لهذا ننوع في كفاءات الجند في الجمع الواحد، بحيث تكون الاستفادة بينهم على أكملها..

وهنا حديث وإن كان ضعيفا قد ضعفه الألباني لكن نأخذ المعنى منه، والمعنى صحيح قال النبي ﷺ لزيد بن حارثة أو لعمرو بن العاص رضي الله عنهما: "إذا بعثتك في سرية فلا تتنقينهم واقتطعهم فإن الله ينصر القوم بأضعفهم." أي خذ من العامة.

الباب الرابع: العلم

تحدث الهرثمي – رحمه الله – في الأبواب الثلاث السابقة عن العامل وصفاته، كيف يسوس نفسه، كيف يسوس أصحابه، ثم صفات العامل سواء كان الأمير أو المأمور.

وعندنا العامل أولا ، لأن العامل له سمة عظيمة، يقول الله عزوجل، (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) ففيه صفة هي صفة الرجولة، (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) فهذا العامل مهما تغيرت الأحوال، مهما حصل من شيء تجده لا يتبدل وهذه صفة عظيمة.

والأحداث التي نعيشها اليوم هي أحداث متغيرة، نعيش باستمرار تغيرات كبيرة جدا، والعمل فيها يتغير لكن العامل لا يتغير، فلا تتغير أخلاقه ، ولا مبادئه، ولا دعوته، لأنه إذا تغير فهذا يعني أنه انتكس، أو تنكب عن الطريق، وقول الله عزوجل، (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) الآية، فالعامل عندنا إذا تغير بسبب لذات الدنيا بسبب النصر، بسبب الهزيمة فقد فقد الصفة التي ذكرها الله عزوجل "رجال" لأن هذه المتغيرات ألهته، من هنا يتضح لنا أهمية الاعتناء بالعامل وخاصة المسئول، بحيث لا يتبدل، ليس كمن إذا كان أمامه نصر تجده ما شاء الله من أحسن الإخوة، وإن كانت هزيمة ينهزم هو أيضا؟! أو أن تجده في الشدة رجل، لكن في النصر يتوه في ملذات الدنيا.

ومن هنا يجب علي وعليك أن ننتبه لأنفسنا وننتبه لإخواننا، سواء كانوا أمراء، أو كانوا من عامة الجند بالتذكرة والنصيحة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل المشكلة لدينا اليوم هي مشكلة عامل أو مشكلة عمل؟

وهذه من الأشياء المهمة، التي إذا ضبطناها، عرفنا أين مكمن الخلل فيها.

والمشكلة في العمل تعني أننا لا نملك رؤية واضحة في العمل، وليست عندنا طريقة معينة في إدارة العمل، لا نملك أولويات، وفي الواقع هذه ليست موجودة عندنا.

بينما المشكلة في العامل، من هو هذا العامل؟ لماذا يقاتل ؟ كيف يقاتل؟ كيف يتعامل مع الأحداث، كيف يعمل؟ ... نجد أن المشكلة الموجودة عندنا تحديدا هي مشكلة عامل وليست مشكلة عمل، مشكلة رجال.

وما أعظمه من دين لو كان له رجال، الرجال هؤلاء لهم مواصفات وصفات، يكون صاحب شجاعة، جسور، متوكل على الله، يملك صفات العفو والتسامح والتواضع لإخوانه فإن فقدت فشل العمل والعامل.

ونجد عندنا العمل منظم وواضح، لديا واجب وأوجب منه، لدينا كيف نتعامل مع هذا التفصيل وكيف أتعامل مع ذاك، لدينا سياسة في التعامل عند ازدحام الواجبات وعند وجود واجب ومستحب لدينا قاعدة في الاختيار.

فقد نظمت لنا الشريعة كل هذه الأمور، لكن حين نتحدث عن العامل، فنجد أنه مشكلة رئيسية عندنا، ونجد أهمية هذا الأمر في قول عمر ﷺ عندما تمنى أن يكون له ملأ البيت رجالا كأبي عبيدة. وحين سأل الصحابة أن يعينوه في اختيار أحد الأمراء، فقالوا له: صفه لنا يا أمير المؤمنين حتى يتمكنوا من اختياره، فقال : "إن كان في الجند كان كأنه أميرهم وإن كان أميرهم كان كأنه أحدهم." بمعنى أنه لو كان جنديا فهو يتمنى للأمير أو يحب للأمير ما يحب لنفسه، فتجده يعذره ويعينه ويدعي له وينصحه، وإن كان أميرا فتجده

كالجندي يتمنى للجند ما يتمنى لنفسه، فلا يحملهم ما لا يطيقون، كثير الإعذار لهم وكثير الإعانة لهم.

وعند المستشرقين، الذين درسوا الإسلام حتى يضربوه، رأوا هذه النقطة، التي تعتبر عندنا من المسلمات، وفعلا أنظر إلى عين العدو لأننا سنجده يحاول أن يضرب هذا العامل أو هذا الرجل، ولهذا نجد كل القصوفات لا تركز على المراكز أو المخازن، بل تركز وتهتم خصوصا بالرجال، لأنهم إذا ضربوا الرجل، ضربوا مرحلة طويلة من الإعداد ومرحلة طويلة من التجارب، وهذا عندهم إنجاز.

نقل صاحب كتاب "قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله" عن المستشرق البريطاني مونتجومري وات في جريدة التايمز اللندنية، في آذار من عام 1968: "إذا وجد القائد المناسب ، الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام، فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى".

يقول المستشرق البريطاني مونتجومري وات في جريدة " التايمز " اللندنية، في آذار من عام 1968: «إِذَا وُجِدَ القَائِدُ المُنَاسِبُ، الذِي يَتَكَلَّمُ الكَلَامَ المُنَاسِبَ عَنْ الإِسْلَامِ، فَإِنَّ مِنَ المُمْكِنِ لِهَذَا الدِّينِ أَنْ يَظْهَرَ كَإِحْدَى القُوَى السِّيَاسِيَّةِ العُظْمَى فِي العَالَمِ مَرَّةً أُخْرَى».

” كتاب: قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله“

نظرة العدو تستهدف الرجال عندنا، من هنا قلنا استهدافه للرجال، من هنا تدميره لأخلاق الرجال، تدميره لآليات تفكير الرجال وفي ماذا يفكرون، يحاول أن يحرفهم عن هذا..

ستجد الكثير من برامجه لا تستهدف برنامجك أو عملك، بل تستهدف رجالك، لأن خوفه هو من ظهور الرجال، ونجد مستشرق آخر يقال له، جب، هذا من المتخصصين في حرب الإسلام والمسلمين.

يقول جب: "إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بصورة مذهلة، تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد".

فهو يقول أن الحركات الإسلامية، عندها شيء عجيب، يكفي حركة بسيطة في يوم وليلة لتنفجر وتتوسع وتقدم عملا ربما ما تقوم به دول، ذلك أنه متعود أن يكون العمل هذا بسبب السنن الكونية الموجودة لكنه يرى أن المسلمين عندما تقوم لهم جماعات صغيرة لا تظهر لها علامات كبرى، إلا أنها تكبر فجأة وينطلق عملها فجأة.

وكأنه يقول أن العمل الذي يقوم داخلها، أو الإسلام الذي يتعاملون به قادر على إيجاد هذا العمل السريع والأداء المتميز، إنما ينقصهم وجود العامل الذي يتعامل مع هذا العمل،

فتجد أن مؤسسة سريعة انتشرت، جماعة صغيرة انتشرت فمن يقود هذه الجماعة من يرتبها من ينظمها فهو يقصد أن ما ينقصنا فقط هو الرجال.

ثم لننظر عن أي رجل تحدث جب! لقد تحدث عن رجل صاحب صفات مميزة هو صلاح الدين الأيوبي.

ولهذا هم يحرصون على ألا يكن فينا رجال بهذا النوعية، يستهدفونهم بأي وسيلة ممكنة، حتى لو كان في أي لجنة، ليس بالضروري اللجنة العسكرية، بل في أي جهة.

ويقول بن جوريون، رئيس الوزراء الصهيوني السابق: "إن أخشى ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي مُحَمَّد جديد".

وحين يقول مُحَمَّد جديد! والنبي مُحَمَّد ﷺ آخر الأنبياء، فهو يقصد أن دينه موجود، وما زالت أخلاقه موجودة في أتباعه، فأن يخرج من يحمل هذا الميراث ويجسده عملا وإخلاصا.

وحين نتأمل كيف نظر رجل إلى فعل عمر رضي الله عنه فقال: لا ينبغي أن يكون إلا نبيا، قالوا: ليس نبيا ولكنه يعمل بعمل الأنبياء.

فالشاهد من هذا الكلام أن مسألة بناء الرجال في الجماعة هي الأساس، وليس بناء العمل. وهذا لا يعني أننا نستهين بالعمل، بل لأن هذا الرجل هو الذي سيقوم بالعمل، وهو الذي سيرتب العمل، حتى لو أعطيته أنت عمل ورآه غير مناسب ، هو سيعدل ويضع العمل المناسب.

ومسألة بناء الرجال عند الغرب مسألة صعبة جدا.

فلا يمكن أن يظهر بينهم قائد بين يوم وليلة.. ولا يعني هذا أنه يظهر عندنا بهذه السرعة لكن القادة موجودين، والسبب أن القائد عندنا مسلم تربى على هذه العقائد العظيمة وتربى على هذه الأخلاق الحميدة.

والأخلاق الحميدة تأتي منبعثة من العقيدة العظيمة، والمعاملة تنبعث من هذه العقيدة العظيمة، وكل شيء ينبعث من هذه العقيدة العظيمة، فسهل جدا ظهور القيادات عندنا.

فيأتي الأخ نجد عنده الأمانة، والخلق وتبقى مسألة القوة فهذه يتعلمها في أشهر، لنقل سنة أو سنتين، بعكس الغرب، فهم يحاولون زرع القيم أولا، وهذه تحتاج إلى مشوار طويل من التجارب والمراحل.. وهذا من أصعب ما يكون لديهم.

ونجد هذا فيما قاله الرئيس الأمريكي كينيدي:"إن مستقبل أمريكا في خطر، لأن شبابها منحل غارق في الشهوات، لا يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه، ومن بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين، لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية..".

عدونا ينظر إلينا بعد دراسة وتدقيق، وخرج بهذه المحصلة، أنه يخاف أن يظهر فينا قيادة تقودنا بالشريعة، هذا خوفه الرئيسي، والدليل أن ننظر إلى النماذج السابقة، مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم كيف كان، أبو بكر كيف كان، عمر كيف كان، خالد بن الوليد كيف كان، ماذا صنعوا ، فأخوف ما يخافه أعداء الإسلام هذا الأمر.

ثم لماذا وصل هؤلاء الرجال لمثل هذه القدرات في النصر وفي التعامل مع الأحداث وفي العطاء والتميز! فلأن هذا من تثبيت الله عز وجل أولا وآخرا.

وليس الأمر بعقيدتهم التي يدينون بها فحسب، بل بهذه العقيدة وبالاستعلاء بالعقيدة، فعندما أؤمن أن الله عزوجل معي، إيمانا فقط وأستعلي وأعتز أن الله عزوجل معي، لن أستطيع أن أنسحب وأنا مؤمن أن الله على كل شيء قدير بل أقولها وأنا رافع رأسي.. أن الله عز وجل معنا.. والله مولانا ولا مولى لكم.. أقولها وأنا معتز بهذا الأمر.

وعندما أتكلم عن جهاد الطلب، أتحدث عنه باعتزاز، لا بخجل أو حياء..

فعندما يأتي الاستعلاء نجده يبعث في قلب المؤمن القوة والعزة والأنفة، يتبدد معها الضعف، (ولا تهنوا ولا تحزنوا) (وأنتم الأعلون).

ولكن إذا ضعف الاستعلاء وبدأت ترى عدوك بعين الأفضل، وأنه يفهم أحسن منك ويفكر أذكى منك ، فلن تستطيع أن تقدم أي شيء،

فأولا عبودية الاستعلاء، أن أتعبد الله عز وجل وأنا أتعالى على أعداء الله بهذا الدين.

والأمثلة في هذا المقام كثيرة فمثلا الختان عندنا من سنن الفطرة، فأتعالى على عدوي بأن لدينا ختان وليس لديكم. قد يقول قائل: ألهذا المستوى؟ نقول: نعم، إلى هذا المستوى..

فمسألة الاستعلاء والاعتزاز بما أملك هذا شيء عظيم، عندما أضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأدرسها، أدرسها باستعلاء، وباعتزاز، وأنظر إلى غيرها بشيء من الدون ، أنظر إلى غير حروب المسلمين بشيء من الدون، وإن كان فيها فائدة..

فإن أردت أخذ هذه الفائدة أو الضابط أو النظرية من غير المسلمين، ثم أجدها تخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا أرمي بها عرض الحائط، بل أضعها تحت قدمي وأرفع رأسي لأني رددتها لأنها تخالف ما قال الله وقال رسوله، هذا الاستعلاء عظيم، من هنا يأتي

النصر، أنك معتز بما تملك، لكن أن تقدم رجلا وتأخر أخرى بما لديك، متردد متلجلج، والثقة معدومة ، فهذا لن يقدم نصرا..

بل يجب على الاستعلاء أن يكون حاضر، ونعلم أنه عبودية نتعبد لله عز وجل بهذا الأمر.

ونورد هنا كلاما لأحد المستشرقين، وهو نمساوي، في كتاب له اسمه "الإسلام الحديث" يقول في هذا الكتاب، والكلام الذي سيقوله هو عبارة عن خلاصة وصل إليها بعد تجارب ودراسة، لنعلم كيف يفكر أعداءنا فينا، قال، "إن الحاجز الذي يحجز المسلم عن التغريب – أن نكون غربيين نفكر بتفكيرهم وندين بدينهم ونتعامل بمعاملاتهم ، أي السبب أننا لا ننحرف إلى هذا الانحراف! قال : "إن الحاجز الذي يحجز المسلم عن التغريب، هو استعلاءه بدينه هو استعلاءه بإيمانه، وأنه لابد من تحطيم ذلك، لكي تتم عملية التغريب".

بمعنى أنني أجد أحدهم يحاول إقناعي بما لديه، فأقول له إذهب لدي ما هو أفضل مما عندك.. فلن يستطيع أن يفعل شيئا.

فقال المستشرق: نشوه ما لديه، نشككه في القرآن والسنة، والقيادة التي يتبعها، في تاريخه، فنضربه بذلك، لكن مسألة الاستعلاء يجب أن تكون حاضرة، أنا أستعلي بكل آية بل بكل حرف في كتاب الله عز وجل، أستعلي به ، يقول الله عز وجل (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) أستعلي بهذا الأمر، ولا أهن ولا أحزن قدر استطاعتي.

ولنتأمل في كلمة قالها وزير المستعمرات الفرنسي، تدل على عمق نظرتهم فينا: قال ماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا!

لقد بحثوا عن كل ما يكسر الإنسان ابتداء فلا ينتصر حين أرادوا هزيمتنا.. وقد وجدوا أن كل ما نملكه من مقومات أخلاقية وصفات نستمدها من القرآن، فالشجاعة والمروءة والأخلاق كلها موجودة في القرآن، لهذا يقول الرئيس الفرنسي: ماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا.

وهذه الكلمة خلفها قصة، نوردها باختصار: وقعت حينما احتل الفرنسيون الجزائر، بعد مائة وتقريبا 28 سنة أو 30 سنة، أخذوا الجزائريات مسلمات لفرنسا وعمدوا لتعليمهن مدة 11 سنة فأصبح كلامهن فرنسيا، لبسهن وهديهن كله فرنسي، ثم أتوا بهن للجزائر ، وأتوا بالوزراء والناس ليستفيد المجتمع ويقتدي بهؤلاء النسوة، وحين ظهرن في الحفل، لتكريمهن وكن عشرة نساء، خرجن جميعهن وهن لابسات الحجاب فكانت صدمة لفرنسا كلها.

فبعد 130 سنة، وبعد تجربة مع نساء أتوا بهن صغيرات وعمدوا لتربيتهن فرنسيات كان هذا القرآن أقوى في توجيه سلوكهن أكثر من كل ما قدمناه كفرنسيين.. هذا ما يريد أن يقوله الرئيس الفرنسي من خلال: ماذا أصنع إذا كان القرآن، أعظم أو أقوى من فرنسا.

وهذا هو القرآن، كلما تمسكنا بمرجعيتنا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كلما كنا نحن أقوى، كذلك هدي النبي ﷺ ، لن نجد كأخلاق النبي ﷺ.

ثم لماذا نركز على أقوال المستشرقين لأنهم يرون بهذه العين، بناء عليها يتعاملون معنا ، يقول المستشرق باكتول: "إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروها بها سابقا، لأن الدين ما زال موجودا _ هو هو- بشرط أن يرجعوا إلى

الأخلاق التي كانوا عليها، حين قاموا بدورهم الأول، لأن العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم ! ..

نعم لا يستطيع، فالأخلاق التي نملكها في قتالنا تجعل العدو يقول تعالوا أنقذونا من بني قومنا، وهذا التاريخ يشهد بهذا الأمر، الشهادة كبيرة جدا، من أين نأخذ هذه المسائل إن لم نأخذها من ديننا .. نأخذها من تاريخ قياداتنا.

وهنا أيضا مسألة الاعتزاز بمرجعيتنا وهي عبادة نتعبد الله عز وجل بها، وكذلك لأنها هي الأقوى، وهي الأظهر وهي الأشمل.

ونجد الآن في إحدى الدول الأوروبية كلية، متخصصة فقط في دراسة خطط خالد بن الوليد والاستفادة منها.

ولا نتعجب حين نسمع أحد الضباط الألمان الكبار في الحرب العالمية يقول: "إن أستاذي في هذه الحياة خالد بن الوليد.".. ذلك أن عدونا يدرك جيدا من نحن وماذا لدينا ثم يأتي من يطلب منا أن نبحث عما نريده عند غيرنا!

إلى هنا ننتهي من تهذيب شرح الشيخ قاسم الريمي – حفظه الله – لشرح كتاب مختصر سياسة الحروب للهرثمي الذي نشرته مؤسسة الملاحم للإنتاج الإعلامي..

الفهرس

بيت المقدس